انتصار الانسان
فى القرآن
د.سعيد الشبلي

الكتـــــــــاب: سلسلة تأسيس البنيان (١)
درب أبراهيم
المـــؤلـــــــف: د.سعيد الشبلى
تصميم الغـــــلاف: HERO
المراجعـة اللغوية: MK
الطبعة الاولى فبراير ٢٠٢٠
رقـــم الإيـــــداع: 20143-2019
الترقيم الدولى : 978-977-6757-18-9
الإخـراج الفنـــــي: MK

المدير العام: محمد عبدالعال قاسم

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش احمد عبد الرحيم - الملك فيصل -جيزة

موبايل: 01003002847

البريد الإلكتروني: mkbookstor@gmail.com

سلسلة : تأسيس البنيان (٢)

انتصار الإنسان في القرآن الكريم
«قراءة تأويلية لقصة يوسف عليه السلام»

د.سعيد الشبلي

M.K
Publishing
Distribution

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تلك آيات الكتاب المبين(1) انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون(2) نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين(3).إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين(4)قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين(5)وكذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق إن ربك عليم حكيم (6).لقد كان في يوسف و إخوته آيات للسائلين(7)إذقالوا ليوسف و أخوه أحب إلى أبينا منا و نحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين (8)اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم و تكونوا من بعده قوما صالحين(9)قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف و ألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين(10)قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف و إنا له لناصحون(11)أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون(12) قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب و أنتم عنه غافلون(13)قالوا لئن أكله الذئب و نحن عصبة إنا إذا لخاسرون(14)فلما ذهبوا به و أجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب و أوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا و هم لا يشعرون(15) وجاءوا أباهم عشاء يبكون(16)قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق و تركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب و ما أنت بمؤمن لنا و لو كنا صادقين(17)و جاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل و الله المستعان على ما تصفون(18) وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشراي هذا غلام و أسروه بضاعة و الله عليم بما يعملون(19)و شروه بثمن بخس دراهم معدودة و كانوا فيه من الزاهدين(20)و قال

الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض و لنعلمه من تأويل الأحاديث و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون(21) و لما بلغ بلغ أشده آتيناه حكما وعلما و كذلك نجزي المحسنين(22) وراودته التي هو في بيتها عن نفسه و غلقت الأبواب و قالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح الظالمون(23)و لقد همت به و هو بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء إنه من عبادنا المخلصين(24) و استبقا الباب و قدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم(25) قال هي راودتني عن نفسي و شهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين(26) و إن كان قميصه قد من دبر فكذبت و هو من الصادقين(27) فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم(28) يوسف أعرض عن هذا و استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين(29) و قال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين(30) فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن و أعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا و قالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه و قطعن أيديهن و قلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (31) قالت فذلكن الذي لمتنني فيه و لقد راودته عن نفسه فاستعصم و لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن و وليكونا من الصاغرين(32) قال رب السجن أحب الي مما يدعونني إليه و إلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن و أكن من الجاهلين(33) فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم(34) ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين(35) و دخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا و قال

الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين(36) قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله و هم بالآخرة هم كافرون(37) و اتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق و يعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا و على الناس و لكن أكثر الناس لا يشكرون(38)يا صاحبي السجن ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار(39) ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا إياه ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون(40) يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا و أما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان(41) و قال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين(42) و قال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف و سبع سنبلات خضر و أخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون(43) قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين (44) وقال الذي نجا منهما و ادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون(45)يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف و سبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون(46) قال تزرعون سبع سنين دأبا فماحصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون(47) ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون(48) ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس و فيه يعصرون(49) وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم(50) قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه

قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه و انه لمن الصادقين(51) ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب و أن الله لا يهدي كيد الخائنين(52) وما أبرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي إنه غفور رحيم(53) وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين(54) قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم(55) وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء و لا نضيع أجر المحسنين(56) ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا و كانوا يتقون(57) وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون(58) ولما جهزهم بجهازهم قال إئتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين(59) فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون(60)قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون(61) وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون(62) فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل و إنا له لحافظون(63) قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين (64)ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا و نمير أهلنا و نحفظ أخانا و نزداد كيل بعير ذلك كيل يسير(65) قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلاأن يحاط بكم فلماآتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل(66) وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون (67) و لما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون(68)

و لما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون(69) فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير انكم لسارقون(70) قالوا و أقبلوا عليهم ماذا تفقدون(71) قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير و أنا به زعيم(72) قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض و ما كنا سارقين(73)قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين(74) قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين(75)فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك الا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء و فوق كل ذي علم عليم(76) قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه و لم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا و الله أعلم بما تصفون (77)قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه انا نراك من المحسنين(78)قال معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون(79) فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله و من قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين(80)ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق و ما شهدنا إلا بما علمنا و ما كنا للغيب حافظين(81) واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وانا لصادقون(82)قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم(83) و تولى عنهم و قال يا أسفى على يوسف و ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم(84) قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين (85) قال انما أشكو بثي و حزني إلى الله و أعلم من الله ما لا تعلمون(86) يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف و أخيه و لا تيأسوا من روح الله إنه لا

ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون(87) فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا و أهلنا الضر و جئنا ببضاعة مزجاة فاوف لنا الكيل و تصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين(88) قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون(89) قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف و هذا أخي قد من الله علينا انه من يتق و يصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين(90) قالوا تالله لقد آثرك الله علينا و إن كنا لخاطئين(91) قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين(92) اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا و أتوني بأهلكم أجمعين(93) ولما فصلت العير قال أبوهم اني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون(94) قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم(95) فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون(96) قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين(97) قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم(98) فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه و قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين(99) و رفع أبويه على العرش و خروا له سجدا و قال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قدجعلها ربي حقا و قد أحسن بي إذ أخرجني من السجن و جاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم(100) رب قد آتيتني من الملك و علمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات و الأرض أنت وليي في الدنيا و الآخرة توفني مسلما و ألحقني بالصالحين(101) ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك و ما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم و هم يمكرون(102) و ما أكثر الناس و لو حرصت بمؤمنين(103) و ما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين(104) و كأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون(105) و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون(106)

أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون(107) قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا و من اتبعني و سبحان الله و ما أنا من المشركين(108) و ما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون(109) حتى اذا استيأس الرسل و ظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين (110) لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى و لكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل كل شيء و هدى و رحمة لقوم يؤمنون(111).

الفصل الأول
الرؤيا
شرعية العلم,شرعية اللغة و النص

شرعية العلم,شرعية اللغة و النص:

« اذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين. و كذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الأحاديث و يتم نعمته عليك و على آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم و اسحاق إن ربك عليم حكيم».

تنطلق قصه النبي يوسف عليه السلام من رؤيا عجيبه رآها . فقد رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رآهم له ساجدين . وقد اتجه برؤياه إلى أبيه يعقوب نبي الله وابن نبيه اسحاق وأحد أبناء ابراهيم عليه السلام.والظاهر الواضح أن يوسف مازال طفلا صغيرا لم يتجاوز مرحلة الطفولة الأولى ولم يصل بعد إلى مراتب الرشد والفهم العميق .أماتبعيته لأبيه فبينة حيث سارع اليه برؤياه طالبا للاستهداء راغبا في الفهم .وقد حذر يعقوب عليه السلام ابنه من سرد رؤياه على إخوته حتى لايكيدوا له كيدا مستجيبين لإغواء الشيطان ونزغه .والمعلوم من سياق القصة أن إخوة يوسف أكبر منه سنا وأنهم أقلقهم إقبال يعقوب على يوسف وأخيه واهتمامه بهما ورعايته لهما حتى لقد قاموا بمحاولة لإبعاد يوسف عن أبيه حتى يخلو لهم وجه أبيهم .وواضح أن يعقوب كان منتبها إلى غيرة أبنائه الكبار من ولديه الصغيرين يوسف وأخيه ولذلك حرص على أن لا يذكر يوسف رؤياه لإخوته .ثم بشر يعقوب ابنه بأن رؤياه دليل نعمة عظيمة تصيبه وتصيب آل يعقوب وآل ابراهيم عموما، هي نعمة الاجتباء ونعمة العلم بتأويل الأحاديث. جاء في لسان العرب :»... وكذلك يجتبيك ربك،قال الزجاج :معناه وكذلك يختارك ويصطفيك،وهو مشتق من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك ... والإجباء :بيع الزرع قبل أن يبدو صلاحه»[1].هذه النعمة التى اشترك فيها يوسف عليه السلام مع آل يعقوب وآل ابراهيم عموما هي نعمة النبوة والرسالة فانتسب بذلك إلى الأنبياء والمرسلين. فهل كان ذلك بكتاب خاص؟ لم يكن ليوسف عليه السلام على ما نعلم كتاب محدد بل إنه لم يرسل إلى قوم معينين وإنما كان نبيا مسلما .يدل على ذلك قول مؤمن آل فرعون :»ولقد

(١) _ ابن منظور، لسان العرب ، بيروت، دار صادر، ١٩٩٤، مجلد ١٤،مادة جبى، ص ١٣١.

جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب «[1] ظاهر من هذه الآية التي جاءت فى سياق قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه أن يوسف قد قام بدور وبمحاولة لإعلان التوحيد وتثبيت الاسلام في البيئة المصرية الوثنية.غير أن القرآن الكريم لم يتحدث بإطناب في ماعدا هذه الآية

وماجاء في سورة يوسف من دعوته لصاحبي السجن الى التوحيد عن دور يوسف الرسالي بقدر ما ركز على النعمة التي منحها الله له و هي نعمة التأويل:تأويل الأحاديث.

كيف فهم يعقوب أن الله سوف يعلم يوسف من تأويل الأحاديث؟ لاشك أن يعقوب نبي وهو يعلم من الله ما لا نعلم:» قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لاتعلمون.»[2]وهو يستطيع بقوة النبوة أن يعقل الكثير عن ربه و يعلم منه»أعلم من الله». فانظر كيف وجد ريح يوسف على مسافة بينه و بين العير وقبل أن يأتيه البشير بثوب يوسف فيلقيه على وجهه فيرتد بصيرا بإذن الله. فالنبي له قدرة الاستبصار و إمكانية الفهم لما أوتيه من قوة الوعي والصلة بالعمق:عمق الوجود وغيبه وهو الله تعالى خاصة. ولذلك فحالما سمع يعقوب حديث الرؤيا فهم اشاراتها الكبرى ومعانيها:الاجتباء-تاويل الأحاديث-النعمة... بل لعله أن يكون قد فهمها بالتفصيل وهذا ما لا نملك عليه الدليل.المهم أنه علم أن هذه الرؤيا تنتسب إلى مجال معرفي(مجال وعي)، خاص هو مجال التأويل وأن صاحب هذه الرؤيا لا بد أن يزود بهذا العلم أي بأساليبه و مناهجه حتى يستطيع أن يفسر رؤياه وأن يؤولها. ولذلك لم يتردد يعقوب في القول لابنه إن الله سيعلمه «من تأويل الأحاديث».

إن الرؤيا،وهي الحلم الرمزي،رسالة؛غير أنها رسالة ذات لغة خاصة هي لغةالرمز .ولذلك لابد من العلم بهذه اللغة التي تفك رموز الرسائل الباطنة والرؤى و الأحلام أي الأحاديث الباطنة لا الكلام المتداول في ظاهر الوجود. فبما أن يوسف قد أرسلت له رسالة شفرية فيها الكثير مما يتصل بحياته و بمساره فوق الأرض و

(١) سورة غافر : ٣٤
(٢) سورة يوسف : ٩٦

بما تؤول اليه شتى ابتلاءاته، فلا ريب أن الله سوف لن يعجزه بل سيعطيه العلم الذي يهيؤه لفهم هذه الرسالة لأنه لايقصد من الرسائل التعمية بل الايضاح.

واضح إذن أننا أمام نبوة خاصة و علم نبوي شديد الخصوصية و تجربة فريدة؛نبوةالتأويل التي رسالتها الحقيقة مثل كل نبوة غير أن علمها هو علم التأويل.فما هي حقائق علم التأويل؟ وكيف تتجلى معطياته و إمكاناته و قدراته في علاقته بالعالم و بالغيب على السواء؟

تبرز قصة يوسف عليه السلام مجالا رحبا يعد بكشف الكثير وبفهم الكثير عن هذا العلم الالهي العميق:علم التأويل.

جاء في لسان العرب:» والرؤيا مارأيته في منامك (...) ورأيت عندك رؤى حسنة:حلمتها. و أرأى الرجل إذا كثرت رؤاه بوزن رعاه، و هي أحلامه..قال ابن بري:وقد جاء الرؤيا في اليقظة...»[1]

ان الرؤيا بطبيعتها لاتكون الا في مجال تخيلي لأنها لا تكون على الحقيقة إلا بتأويل فالشمس والقمر و الكواكب لا تسجد على وجه الحقيقة إلا لله الذي خلقها وهي في مسارها لم تتحول منذ خلقها الله تعالى.

وقد كان موقف نبي الله يعقوب من هذه الرؤيا التي رآها ابنه موقفا جادا بل رتب عليها أنواعا من التصرف «لاتقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا..» وفهم منها بشائر ومعان حول مستقبل ابنه وما ينتظره على ما قدمنا.

فدل بذلك على قيمة الرؤيا وعلى أنها رسالة بصرف النظر عن موضوعها.وفي هذا تشريع من القرآن للرؤيا كلغة معتبرة، أي كرسالة ذات أبعاد وحديث يحوي معنى مهما كان هذا المعنى ايجابيا أو سلبيا. وسوف يصبح التعامل مع الحلم (الرؤيا)،تعاملا جادا واعيا عبر آلية التأويل عملا مستمرا ليوسف عليه السلام و دليلا صادقا حاسما على صديقيته و نبوته

(١) لسان العرب ، مجلد ١٤، مادة رأى : ص ٢٩٧.

الفصل الثاني
قوة التأويل

1 - علم الحياة

« و دخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا ...ياصاحبي السجن،أما أحدكما فيسقي ربه خمرا »

ليس من قبيل المصادفة أن يدخل السجن مع يوسف فتيان.وليس من المصادفة أيضا أن يرى هذان الفتيان رؤيتين غريبتين.وليس من المصادفة بالنتيجة أن يكشف التأويل عن حقيقتين مختلفتين و متناقضتين لهاتين الرؤيتين.

أولا، لماذا كان الداخلان فتيان لا سواهما؟ إن الفتوة رمز القوة ورمز بداية الحياة وجدتها أي رمز الانفتاح اللامشروط على المستقبل.إن الفتى مشروع مفتوح لرجولة مستقبلية لا تعلم حدودها وآفاقها بعد.فهذان الفتيان مشروعان للتأويل وبرنامجان للفهم؛برنامج يحوي علم الموت،وبرنامج يحوي علم الحياة.

ولنبدأ بمن يحمل علم الحياة.قال الفتى الأول مظهرا سره:»إني أراني أعصر خمرا.»هكذا وباختصار شديد،عّبر القرآن عن هذه الرؤيا؛وباختصار أيضا كان جواب النبي يوسف:»أما أحدكما فيسقي ربه خمرا.»

كيف فهم يوسف الرؤيا؟ولماذا أولها بأن الفتى يخرج إلى حياة الناس من جديد و يسقي سيده خمرا ؟من الصعوبة بمكان الاجابة عن هذا السؤال؛حيث لا تكفي مجرد الألفاظ ظاهريا على الأقل،لكي توصل المؤول إلى ما تؤول اليه حياة الفتى.المهم أن يوسف عليه السلام علم مستقبل الفتى واستطاع أن يصل بواسطة التأويل إلى الحياة الكامنة فيه،أي إلى الأحداث المستقبلية الكامنة في سر ذلك الفتى و التي حملتها الرؤيا إلى يوسف لكي يراها رأي العين عبر جهاز التأويل.

عين لا ترى الحاضر فقط بل ترى المستقبل أيضا ،عين تستبصر الأشياء و الأحداث و الوقائع،لكي تؤكد أن علم التأويل هو علم الاستبصار.

في العبارة القرآنية ايجاز بديع بليغ.فالفتى قال» اني أراني» فأكد على حضوره وعلى أنه عين ذاته في الرؤيا كما هو في الواقع.ثم قال «أراني» فبين أنه بمثابة من يرى شريط أحداث يمر أمامه وهو بطله؛غير أنه لحظة الرؤيا

مشاهد لا غير.أي أن الرؤيا هي مشاهدة الانسان لذاته في حالة فعالية فعلا أو انفعالا.وهذه الذات التي تفعل أوتنفعل،لا يمكن أن تكون الذات الماضية،لأن الماضي قد ولى و انتهى؛فهي على الأغلب الذات في الزمن المستقبل و قد تحررت من أسر الحاضر بفعل النوم كتحرر الميت من قيود الحياة عند تلبسه بالوفاة.

فالرؤيا إذن هي حركة الذات المستقبلة تظهر للذات الحاضرة على شكل مقنع ملغز.وهذا الظهور لأحداث المستقبل على شكل من أشكال الظهور كالرؤيا هنا مثلا، يدل على أن ذات الإنسان المستقبلية حاضرة في ذاته الراهنة ،كامنة فيها من حيث يدري أو لا يدري.فكل حقائقنا و انفعالاتنا وأفعالنا المنتمية إلى مستقبلنا موجودة فينا وجودا مكتملا لا يخفيه سوى تلبسنا بالحاضر وانفعالنا به واستغراقنا فيه.

إن المستقبل ليس معدوما بل هو موجود مغيب لا غير.وكونه مغيبا ليس لطبيعة ذاتية فيه،وإنما لكون الانسان بما هو متلبس بالزمن الحاضر وأحداثه،أي بما هو في حالة فعل وانفعال، أي بما هو ممتلىء بالأحداث لا يقدر أن يراه.تماما مثل الموت الذي يوجد في الانسان بكل معانيه و حقائقه وليس خارجا عنه ولكنه محجوب بحركة الانسان وسعيه واضطرابه في حياته.فإذا كف الانسان عن الحركة والسعي، ظهرموته وبدت حقيقته الثانية التي كانت مخفية.

إن الموت ليس إضافة بل هو حقيقة موجودة غائبة.إن الزمن المنقسم بفعل اليقظة (التحكم)،يلتئم على نفسه ليغيب فيه مفهوم المستقبل و الماضي والحاضر.ولذلك يظهر المستقبل الذي ليس هو سوى ما تؤول اليه الذات مما غيّب فيها من مواقف وأرزاق وأقوات وابتلاءات وفتن وموت وبعث وحساب وجنة أو نار...الخ. فكل برنامج الذات مسطر فيها،مكتوب معدود بما في ذلك ما تقترفه مختارة طائعة وليس ذلك على الله بعزيز أوبمستحيل. وفي أرض الذات قدرت الأقوات:» قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين.وجعل فيها رواسي من فوقها و بارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال

لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين و أوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم.» [1]

و قال تعالى:»نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين.على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون.ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون.» [2]

هذه الآيات من سورة فصلت (للعنوان دلالته)،ومن سورة الواقعة تبين بوضوح أن التقدير قد تم في أربعة أيام سواء للسائلين.والذات الإنسانية أرض سماؤها الله عز وجل، يقدر فيها ما يشاء.وقد بين الله تعالى أنه قدر فيما قدرالموت: « نحن قدرنا بينكم الموت.»

و هكذا يظهر أن كل شيىء قد اكتمل، وأن الصورة قد استكملت كل فصولها وأجزائها في علم الخالق عز وجل. فالإنسان في أية لحظة من لحظات وجوده،هو كلية وجود في علم الخالق تعالى. فالله تعالى لا يرانا منشطرين ولامنفصلين عن أجزاء من حياتنا، بل يرانا كما كنا وكما نكون وكما لم نكن،أي أنه يرانا كما نحن في كلية ذواتنا.

إننا أمام الخالق عز وجل، برنامج مكتمل وصورة تامة ناجزة.هذه الصورة التامة الناجزة لا شك أنها في علم الله عز و جل، ومن اختصاصه تعالى،ومن غيبه الذي لا يعلمه إلا هو.ولكننا مع اليقين في هذا الاختصاص الالهي،نرجح أنه سبحانه وتعالى قد كتب كل شيىء في ذات الانسان، وأنه في ذات هذا الانسان توجد كل لحظات حياته، وأنه يحوي كل برنامج وجوده.ومعنى هذا أن الانسان يحمل في نفسه كل حقائقه دفعة واحدة وأنه إن لم يكن يرى موته فلأنّه يمارس الحياة، وإن لم يكن يرى البعث فلأنّه ميّت، وإن لم يكن في النار فلأنّه في الجنّة.. وهكذا فالإنسان قد تحدد علمه بنفسه بحدود المجال الذي هو فيه، فإذا كان نائما فإن حدوده حدود النائم وحينئذ يكون غافلا عن مجال اليقظة . وإذا كان مستيقظا فإنّه يكون غافلا عن مجال النوم وحقائقه، وإذا كان ذكرا فإنّه يكون غافلا عن المجال الأنثوي والعكس ؛ ثمّ، واذا كان في الدنيا، فإنّه يغفل

(١) سورة فصلت : ٩ _ ١٢

(٢) سورة الملك : ٦٠ _ ٦٢

عن مجال الآخرة . فهل الآخرة غير موجودة الآن؟ إنّها موجودة تمام الوجود، فالجنّة موجودة والنّار موجودة والملائكة موجودون، وربّك فوق كلّ ذلك بكلّ شيء محيط. كلّ الوجود قد اكتمل، وكلّ الكون قد استدار واكتمل؛ والانسان فقط بما يعانيه من الحجاب،لايرى إلا بعين واحدة قاصرة أي أنّه لايستقي إلا من خزانة واحدة .

لو امتلك الانسان عينا أوسع من عينه ولنقل إنها عين تستطيع أن ترى ما خفي وغاب،لرأى الجنّة والنار، ولرأى لحظة موته والملائكة من حوله ولرأى نفسه يحاسب.فليس في الوجود غيب البتّة ،بل الوجود حاضر موجود كامل على ما كان ويكون جلّ الله أن يخفى أو تخفى منه خافية.وإنما القصور في عين الرائي وهو الإنسان الذي ابتلي بالحجاب امتحانا من الله عز وجل ليعلم من يؤمن به بالغيب ممن يكفره وينكره بعد العهد والميثاق .

كل وجود الانسان مسطر مكتوب في خزائن عليها حفظة كرام يستوفون الأجل ويعدون الأنفاس نفسا نفسا. ويظهر أن هؤلاء الخزنة الكرام لم يمنعوا من إرسال الإشارات والتنبيهات بشائر ومنذرات إلى الانسان بين الحين و الحين في صور مغلّفة في الغالب حفظا لحدود الامتحان و سترا لحدود ما حد الله و شرع.إن الملائكة تتنزل بالبشائر و النذر و تقوم بنفس مهام الرسل عبر طرق أخرى منها طريقة الرؤيا.

فالرؤيا إشارة الهية ملكية تعلن عن حقيقة ما في خزانة الإنسان من علم مستقبله الذي يسبق موته،أو مستقبله الذي بعد موته.يقول تعالى كاشفا عن دور الملائكة إذ تتنزل مبشرة:» إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا و أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.»[1](1)

فكيف تتنزل الملائكة إن لم يكن في الحياة الدنيا،وعبر إشارات باهرة وإضاءات وأنوار للمتقين.

أما الذين كفروا فبما حجبوا بآلهتهم من الجن والإنس، فإنهم في الظلمات يعمهون. وسوف لن يكشف عنهم الغطاء إلا بداية من الموت، ثم لحظة البعث

(١) سورة فصلت : ٣٠

ينكشف الغطاء بالكامل. إن الفاصل بين الحاضر والمستقبل عين الفاصل بين الدنيا والآخرة؛ إنهالحظة وعي،هي الفاصلة ما بين الدنيا والآخرة، وما بين الحياة و الموت وما بين الموت و البعث.

إن مسيرة الوعي الانساني تتشكل من خلال أربع لحظات أساسيةهي:

1 -العدم : (اللاوعي)

2_ الحياة الدنيا: وعي أول

3 - الموت :وعي ثان

4 – البعث و الجزاء : وعي كامل

يتطور الإنسان بحسب ما قدره بارئه، من العدم إلى الوعي الكامل بوجوده بحسب مسار مفروض، وهو مدعو ضمن هذا المسار إلى المشاركة في إحداث النقلة عبر الايمان والاعتراف. فهو كوعي أول في الحياة الدنيا،مطالب بالاعتراف باللحظة الثانية (الوعي الثاني) وهو الموت. وقوام هذا الاعتراف،الايمان بأن الموت وجود للذات ضمن شروط أخرى وليس عدما لها.إن الموت يدخلنا في منطقة جديدة من الوجود تؤسس لدينا وعيا ثانيا بأنفسنا و بالحقيقة يتجاوز وعينا الدنيوي الأرضي بما لا يقاس.

ثم إن الإنسان مطالب أيضا بالاعتراف بلحظة وعي أكبر،هي لحظة البعث و الجزاء،حيث سيرى حينئذ كل وجوده دفعة واحدة عندما ينظر حقيقة ذاته في مرآة الله سبحانه و تعالى و يقيم مسيرته في ميزان الحق العدل. عبر ماذا يتم هذا الاعتراف؟ و كيف يتم تصعيد الوعي إلى أقصى حدوده ؟

إن تجاوز الوعي الأول إلى الوعي الكلي يتم عبر الايمان.فالايمان وحده قادر على أن يؤسس للإنسان وعيا بكلية وجوده.إن المؤمن لا يرى ذاته منشطرة بل يراها كاملة.يرى ماضيه (العدم)، ويرى حاضره (الدنيا)، ومستقبله القريب(الموت)، و مستقبله البعيد(البعث).وعبر هذه الرؤية الجامعة ،يتأسس لدى المؤمن وعي كلي تنبجس من خلاله حقيقته و يستقيم وجوده بعد أن تموضع بالوعي ضمن دائرة الوجود المكتملة.

وبالنسبة للمؤمن، فإن الموت و البعث لا يشكلان مفاجأتين أو بالأحرى فاجعتين، و ذلك لأنه قد استوعبهما بالوعي قبل أن يتحققهما بالفعل. إنه عندما يموت وعندما يبعث، سوف لن يرى إلا تأويل ايمانه و قد أصبح واقعا لا لبس فيه.فالايمان رؤية صادقة،صافية يتنزل الغيب بتأويلها على مقادير. ولذلك يلتقي التأويل بالايمان التقاء حاسما و ضروريا.إن المؤمن عندما يؤمن بالموت لا يعيشه و لكنه يراه بنظره العميق، وعندما يؤمن بالله لا يراه ولكنه يتمثله من خلال حجاب الغيب ويشعر به، وعندما يؤمن بالبعث لا يرى الجنة والنار، ولكنه يشعر بريح الجنة و لفح النار.

إنه ذلك الإنسان الذي وعى أن وراء كل لحظة أولى لحظة ثانية تؤول إليها.فالليل يؤول إلى النهار، والحياة تؤول إلى الموت، والصبح يؤول إلى الغروب، والدنيا تؤول إلى الآخرة، والإنسان بالنتيجة،يؤول إلى ربه لا مناص من هذا.

الايمان في معناه المعرفي،ممارسة للتأويل ،حيث أن مضمون عملية الايمان يقين صادق في وجود عالم الغيب الكامن وراء عالم الشهادة، واعتراف به.ومعلوم أن هذا اليقين هو الذي يؤسس التقوى التي هي سبب النجاة و سر الفلاح.يقول تعالى:» الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب...الآية»[1].

فقوة المتقين وخاصيتهم الفارقة،ايمانهم بالغيب وعدم الوقوف عند حدود عالم الشهادة. وإذا كان التأويل ممارسة النظر بعين البصيرة الباطنة فذلك أيضا معنى الايمان.وعليه،فكلما ازداد الإنسان ممارسة للتأويل ،كلما ازداد ايمانا؛لأن غاية التأويل الحقيقة، كما أن غاية الايمان اليقين. ولا يقين الا بالحقيقة المعاينة المشهودة.

يمتلك المؤول خاصية فريدة،هي خاصية النظر بعين العمق إلى كلية الذات وعدم الانحصار في زمن واحد من أزمانها.ولذلك،ونظرا لليقين الذي يحمله المؤول حول البعث والجزاء (الغيب الأكبر)،فإنه يقدر على الإحاطة بالغيب الأصغر المتمثل في مرحلتي الموت والحياة المتضمنتين للوعي الأول والوعي

(١) سورة البقرة : ١ _ ٣

الثاني.

إن أي مؤمن لا بد أن يكون مؤولا، بما أنه لا يحمل تصورا قاصرا للحياة ولا رؤية ظاهرية لها، بل رؤية عميقة تربط بين الدنيا والآخرة التي إليها تؤول. وإذا كان المؤمن سجين الأرض أي وعيا مغتربا،فإنه بايمانه ينجع نحو النهايات، ويرقب الوعد، ويتجاوز الموت والحياة نحو ما يضمهما معا في عمل صالح يؤهل للبعث ويحقق الخلود المنشود. يقول تعالى جامعا بين الأزمان،محطما للفواصل بين الأكوان:» الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور.»[1].

لذلك،سيكتشف يوسف عليه السلام،علوم الحياة (الوعي الأول)، وعلوم الممات (الوعي الثاني)، بل وسوف يتجاوز إلى علوم النجاة (الوعي الثالث).

(١) سورة الملك : ٢

1 -علوم الحياة

(إني أراني أعصر خمرا).

فتى يعصر خمرا.. إنه الوعي الأول (علم الحياة الدنيا)؛ الذي إن مارسناه إلى أقصاه ونهاياته (عصرناه)؛أدانا إلى الغيبة والذهول وفقدان التمييز و إلغاء» المعقول». تلك على ما يبدو سمات هذه الرؤيا الأولى التي كشفت ليوسف أن صاحبها يعود إلى دنياه وهرجها ولهوها وعبثها،إلى الغيبة والسّكر ، إلى مقارفة الخمرة المذهبة للعقل...أوليست الحياة الدنيا إذا أصبحت لهوا و لعبا، حجابا على العقل و حاجزا دون الرشاد لمن فقه وعلم و عرف.

سوف يؤول هذا الرائي بعد حين،إلى التحقق بمارأى؛فيجالس سلطان الأرض ويسقيه الخمر، فيخضع من جديد لسلطان الوعي الأول النسبي، اللاهي،العابث، الناسي وبذلك يستحوذ عليه الشيطان و ينسى ما طلبه منه يوسف أن يذكره عند ربه عساه يكون سببا في نجاته:» و قال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين.» [1]

التأويل العميق لرؤيا الفتى الأول، أن الحياة الدنيا لهو ولعب وغفلة و نسيان؛ وأن صاحب الدنيا لا يذّكر إلا بعد أمة، أي بعد رؤيا أخرى يراها هذه المرة لدى غيره، و ليست سوى الموت. فالموت هو الذي نراه لدى الغير فيذكرنا حينئذ بأننا نموت. كذلك ذكر صاحب الرؤيا الاولى رؤياه لما سمع رؤيا الملك: «وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .» [2]

فلولا رؤيا الملك، لما ذكر الفتى اللاهي ،ساقي الملك وعده ليوسف بأن يذكره عند ربه (الملك) سعيا في خلاصه وردا لمنّة يوسف عليه بما دعاه للايمان وأحسن معاشرته، وبشّره بالخروج سالما ناجيا من السجن. فكأن السجين صاحب الرؤيا الأولى، ذلك الإنسان الذي عاهد ربه على الايمان،فلما أخرجه ربه إلى الحياة الدنيا ومكّنه فيها ،لعب ولها، ونسي ما وعد به ربه. وهذا الفتى لا يشعر بحاجة إلى الذكرى إلا عند الحاجة وبهدف استعمالي توظيفي نفعي.فهو

(١) سورة يوسف : ٤٢
(٢) سورة يوسف : ٤٥

يعود إلى ذكرى يوسف عليه السلام عندما يحتاج إلى تفسير رؤيا سيده. فكانت أوبته إلى الحق من أجل الدنيا لا من أجل الحق رغم أنه لا ينازع في صديقية يوسف عليه السلام ولا يشك في علمه .

2 _ علم الممات

«...وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين .. وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان « [1]

أول يوسف عليه السلام ،رؤيا الفتى الثاني بوضوح،وبين له أنه سيصلب وستأكل الطير من رأسه. ظاهر الرؤيا قد لا يوحي بشيء من كل هذا، ولكن آليات التأويل العميقة استطاعت أن تنضو الثوب، وأن تكتشف ما وراء الصورة والكلمة من حقائق. لقد نطق الفتى بما رأى تماما مثل صاحبه، و كانت رؤياه أنه رأى نفسه يحمل فوق رأسه خبزا. فدلّ حمل الخبز فوق الرأس يوسف عليه السلام على أن الفتى يصلب. فكيف وصل إلى ذلك؟ علم ذلك عند ربي وسع ربي كل شيء علما. ثم علم من أكل الطير من هذا الخبز أن الطير ستأكل من رأسه. هناك ملاحظة، وهي أن الطير لم يقع تأويله بحدث أو شيء بل بقي بعد التأويل كما هو في الرؤيا فلماذا؟ كذلك الرأس،لم يقع تأويله؛فماذا بقي إلا حمل الخبز.فهل ذلك هو دليل الصلب وعلامته ؟ فإن كان فلماذا ؟

من الصعوبة بمكان النفوذ إلى خفايا هذه الرؤيا، فقط يمكن المغامرة بالقول إن هناك صلة بين الطير التي تأكل من الرأس وبين الموت النازل. فالطير قد يعني ملائكة السماء الذين يقضون شأن أهل الأرض بأمر ربهم.

فآل يوسف بالرؤيا إلى آخرها أي إلى حقيقتها من حيث تقدير الله تعالى لموت هذا الفتى مصلوبا. وقد يكون الخبز بمعنى الجسد، لأن الطير ستأكل من رأسه أي من جسده. فالخبز غذاء ونعمة والجسد كذلك. فهذا الخبز الذي أكلت الطير منه هو الجسد الذي نقص منه ما أكلت الطير منه بعد صلب الفتى.

المهم، أن يوسف عليه السلام استطاع أن يحيط علما بمستقبل الفتى وبلحظة أساسية من لحظات حياته؛تلك هي لحظة الموت. فتبين أن التأويل كعلم قادر على ان يحيط بمجال الموت و بحقائقه وتفاصيله (خصوصية الصلب).

معنى ذلك أن التأويل يتجاوز الوعي الأول (الحياة) إلى الوعي الثاني (الموت)؛

(١) ١ _ سورة يوسف : ٣٦ _ ٤١

و لهذا جاءت رؤيا الفتى الميت الثانية في الترتيب»قال الآخر «. فالمؤول إذن مطلع على خزانة الموت، عالم بأسرار هذه المرحلة، قادر على الاستماع إلى رسائلها التي ترسلها إلى مرحلة الوعي الأول (الحياة).

إن رؤيا الفتى، رغم مأساوية محتواها،لم تمنع يوسف عليه السلام من أن يحدثه بها. و في هذا إبراز لحدود دور المؤول ومعنى التأويل. فالمؤول لا يهمه كيفية تعامل الناس مع الحقيقة، بل تهمه الحقيقة نفسها. ولذلك كان تأويل يوسف عليه السلام للرؤيتين بنفس الكيفية المحايدة، حيث أن دوره هو كشف ما وراء الظاهر دون أي تعصب للمضمون الخاص الذي يحمله .إن المؤول يركز أساسيا و جوهريا على الحقيقة، و هذا هو على التحديد سر قوته المعرفية. لو فصل المؤول بين حقيقة و حقيقة، و لو صنف الحقيقة إلى حقائق، لغابت عين بصيرته التي بها يرى الأشياء، و لفقد عهده مع الحقيقة. إن قوة المؤول في تجاوز التصنيفات الجائرة للحقيقة وتفادي الاغترار بالتحريفات التي طالت معنى الوجود وأهدافه و تجلياته. ولذلك أقدره الله تعالى على رؤية الحقيقة تامة غير منفصلة. وهنا، نصل إلى تجلية العمق الأساسي الذي يتحرك المؤول في فضائه وهو وحدة الوجود.

إن وحدة الوجود كرؤية أساسية،هي المعين الذي يستقي منه المؤول ؛ وهي المصباح الذي يهتدي به إلى حقائق الحياة والموت و ما وراءهما. الوجود واحد؛ وهو يحيل إلى بعضه البعض عبر رسائل متواصلة بكل لغة ولسان. تلك هي الحقيقة الأعمق التي يتفطن إليها المؤول ؛وحينئذ وبمركزية الوحدة، يمتلك النباهة الأساسية التي تمكنه من التأويل وتعطيه المقدرة المعرفية الأساسية لممارسة هذا العلم. ثم بعد ذلك يتفاوت المؤولون بحسب تفاوتهم في تحصيل التقنيات وفي إحكام استعمالها. أما الايمان بوحدة الوجود فهو القاعدة الثابتة للتأويل الحقيقي. لأن التأويل هو علم الإحالات و فنها. وكلما وعى الانسان العلاقات المتشابكة والحقيقية بين الأشياء، بل كلما أغرب في هذا العلم ،كلما قدر على التأويل و على فهم خفايا الأشياء.

لا حدود داخل الوجود إلا بالنسبة والاعتبار، و من أجل التجربة والاختبار ؛ كما

أنه لا حدود بين أفراد العدم، لأن المجال حاكم على ما تحته وعلى ما فيه. فكلّ ما دخل العدم معدوم، وكلّ ما دخل الوجود موجود.

هذا الفهم المركزي لمسألة الوجود والعدم، أساسي لتحقيق الوعي الأعمق بالحياة. إن الحياة نظام وتجل كاشف باهر ينبىء عن وحدة الصانع تعالى ووحدة خلقه و إبداعه. ولذلك تطلبت دائما نوعا من الخلق ذوي حدس عميق لم يخدعهم ظاهر الاختلاف، ولم يستعبدهم ظاهر الكثرة، ولم يعمهم ظاهر الخطاب عن باطنه. وهؤلاء الملهَمون لهذا النور العميق الباطن، هم الذين أنتجوا وحدة النص من خلال وحدة الوجود. لو نظرنا إلى عمل يوسف عليه السلام، لوجدنا أنه بالأساس تفسير، أي إحالة نص مبهم إلى نص جلي. بذلك كان التأويل مطالعة وكش1فا ورؤية تجاوزت النص إلى الوجود الذي يصدر عنه هذا النص. فالوجود واحد والنصوص كثيرة، أي أن وجودا واحدا يمكن أن يصدر أكثر من علامة و إشارة تبرز ظاهريا مختلفة،لكنها في العمق تحمل باطنا واحدا و معنى واحدا . ولذلك كان التأويل علم الحقيقة،لأن الحقيقة هي وحدها التي لا تتغير، وإنما التغيير والتبدل و التنوع لتجلياتها و كيفياتها.

بين المؤول و الحق صلة و عهد لا يتحول، عهد قوامه الاخلاص من قبل المؤول للحق في كل الأحوال وفي كل الوضعيات وعبر كل التجليات. أما الحق، فكل يوم هو في شأن :»يسأله من في السماوات و الأرض كل يوم هو في شأن.» [1]

تتتالى التجليات الرحمنية القائمة على مبدإ الزوجية كجدل أساسي للخلق الكوني. و عبرالعهد الأول مع المتجلي، يمارس المؤول الإحالة الدائمة وصولا إلى الرحمن الذي خلق الانسان ،علمه البيان. فالكون كله بيان للخالق جل وعلا، والمؤول يعلم هذا تمام العلم ؛ لذلك لا يهوله النص ولا يخشى سعته و امتداده و تنوعه ما دام محافظا على العهد الأول ،عهد الوحدة والتوحيد. فالتأويل حينئذ، هو علم التوحيد أو قل هو أحد أهم علوم هذا البحر الواسع و الخضم الذي لا يعلم قراره إلا الله ،ذلك علم التوحيد.

بين التأويل و التوحيد صلة متينة.فلا يتقن التأويل إلا موحّد بوجه من وجوه

(١) سورة الرحمن : ٢٩

التوحيد. أما صاحب التوحيد الأكبر والأصفى أي المؤمن بوحدانية الله تعالى كما جاءت في القرآن العظيم، فهو أقدر الخلق على التأويل والفهم؛ حيث أن التأويل فهم عن الله سبحانه وتعالى ، الذي يفهم خلقه بأي طريق شاء و بأية كيفية أراد. فالله سبحانه و تعالى لا تحصره العوالم و لا تحده المواد. وسبحان من تجلى في كل شيء ، سبحانه عما يصفون .

3- - علم النجاة

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون. قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون.يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع للناس لعلهم يعلمون.قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون.ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون.ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون.»[1]

هذه الرؤيا من أغرب الرؤى التي يمكن أن يراها بشر.ورموزها من المجال الطبيعي الكثير التداول والذي نتعامل معه باستمرار (البقر،السنابل..)، بل إنها ترتبط خاصة بالمجال الفلاحي والرزق الطبيعي،أي بمجتمع يعيش على الماء والمرعى.وفيها أيضا جانب مبهر وهو العدد.فالملك رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، وهو واع بما رأى مستيقن له. فما السر في وجود العدد؟

الملاحظة الأولية تقول إن هذا الحلم منظم أي أنه يحتوي تنظيما معينا من حيث مصدره ومن حيث دلالته.فما هي دلالة هذه الرؤيا العجيبة؟ أما الملأ الذين أحاطوا بالملك فكان جوابهم لما استفتاهم: «قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.»[2]

جاء في لسان العرب:» الضغث:التباس الشيء بعضه ببعض(...)،قال شمر:الضغث من الخبر والأمر:ماكان مختلطا لاحقيقة له(...) وأضغاث أحلام الرؤيا:التي لايصح تأويلها لاختلاطها.والضغث:الحلم الذي لا تأويل له ولا خير فيه والجمع أضغاث.وفي التنزيل العزيز:قالوا أضغاث أحلام أي رؤياك أخلاط ليست برؤيا بينة،وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين أي ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل لأنها لا يصح تأويلها.وقد أضغث الرؤيا وضغث الحديث:خلطه(...)وقال غيره:أضغاث

(١) سورة يوسف : ٤٣ _ ٤٩
(٢) سورة يوسف : ٤٣ _ ٤٩

الأحلام ما لا يستقيم تأويله لدخول بعض ما رأى في بعض،كأضغاث من بيوت مختلفة،يختلط بعضها ببعض فلم تتميز مخارجها ولم يستقم تأويلها.»[1]

نلاحظ من خلال قول الملإ أضغاث أحلام أنهم سارعوا إلى اتهام الرؤيا بالخلط ونفوا عنها المعنى والنظام. ثم أقروا أنهم ليسوا علماء بتأويل الأحلام، وهذا الكلام قد يكون لنفي الاختصاص مطلقا وقد يكون لنفي العلم بهذه الرؤيا تخصيصا.

إن الملك صاحب الرؤيا، واع بأن ما رآه رسالة ذات معنى؛غير أن هذا المعنى كان سيبقى غائبا إلى الأبد أو محمولا على مجرد الظن لولا وجود يوسف عليه السلام الذي وضح للقوم وبين لهم حقيقة رؤيا الملك بدون لبس ولا غموض فكشف عن أنه ليس مجرد رؤيا تحمل بلاغا ونبأ،بل إنها تحمل فوق ذلك سببا لنجاة القوم من آفة تحل بهم في مستقبل أيامهم وهي آفة الجفاف والجدب. فسبع سنوات الخصب التي سيشهدونها ستكون سنوات خير ونماء وزرع وفير،

ولكن ستعقبها سبع عجاف تذهبن بالزرع ويجف لهن ما في الضرع؛ وحينئذ فمن الحكمة التهيؤ لهذه السنوات باستبقاء الزرع في سنبله والاقتصار على حد الحاجة. وبذلك تكون النجاة من سني الجدب والجفاف التي سيعقبها عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون. فهذه الرؤيا تنبىء عن المستقبل بوضوح وتكشف عن ما سيحصل على مدى خمس عشرة سنة؛فهي نبوءة أو من علم النبوة غير أن الملك لم يكن نبيا.

فدل بذلك على أن للإنسان بما هو إنسان، مشاركة في كل العلوم الرفيعة وفي كل المواهب والخصائص النبوية؛ غير أن آلة الفهم والاستيعاب هي التي تختلف من شخص إلى آخر .فالرؤيا جاءت إلى الملك من المستقبل،غير أن هذا الملك لم تكن له آلة القبول لعلم المستقبل؛ ولذلك رأى الرؤيا ولم يعرف معناها.إن هذا يؤكد أن الأزمنة متداخلة وأن كل شيء موجود في كل لحظة وأن عمى الإنسان وضلاله وضعف آلته المعرفية هي التي تحول دونه ومعرفة هذا الكل بل تحصره في الجزئيات المضلة. إن التأويل إذا كان قد أحاط بعلم الحياة

(١) لسان العرب ، مجلد ٢، مادة ضغث، ص : ١٦٣

في تفسير الرؤيا الأولى،وبعلم الممات في تفسيره للرؤيا الثانية،فإنه يكشف في الرؤيا الملكية الثالثة،على قيمته كعلم للنجاة.فصاحب التأويل بما يتفطن إليه من معاني الأعماق ومن أحاديث الباطن، وبما يعلمه من رسائل الحق؛ وباختصار، بما هو قادر على الاتصال بالغيب الذي هو مستقبل حياة الإنسان المطوي، قادر على أن يعرف طريق النجاة وبالتالي على أن يسلكها وينتفع بها.

1 _ سـورة البقرة : 28 ينطوي المستقبل الإنساني على حديث العسر واليسر،مثلما أنه ينطوي في الآخرة على حديث الجنة والنار ؛هذا هو مستقبل الإنسان على وجه التعميم.فأما من تلهه السنوات السبع الخصيبة عن السنوات السبع العجاف،فهو لا يعرف من الحقيقة إلا جانبا ،وأما من يتصور أنه لا يسر بعد العسر فقد كفر ربه ونسيه. تلك هي حكمة القرآن الخالدة، ولذلك تفطن هذا المؤول إلى وحدة الزمان في رؤيا الملك واختلاف الحال.

فالزمان واحد (البقرات،السنبلات)،وهي علامة السنوات، والذي يتبدل هو أحوال هذه البقرات والسنبلات، فهي سمان في حال أولى وعجاف في حال ثانية؛خضر في حال أولى، يابسات في حال ثانية.فالزمان واحد لايتبدل ولا يتحول وإنما تتغير الأحوال فنتصور الزمان قد تمدد وتغير، ولو بقيت الأحوال كما هي لما عرفنا للزمان معنى. يرتبط الزمان بالأحوال والتغيرات،أما الأبدية فترتبط بالثبات والرسوخ.

إن الرقم سبعة يذكرنا مباشرة بالسماوات السبع والأراضي السبع، أفلا توجد صلة بين هذه الرؤيا وبين السماوات والأراضي.إن الأراضي السبع تستمد من السماوات السبع مصدر خيرها ونورها ونمائها.يبرز من خلال التأويل أن البقرة ترمز إلى السنة وكذلك السنبلة.وقد تكون البقرة ترمز للزمان خاصة (السنة من الزمان)؛والسنبلة ترمز لحال السنة أي للجدب أو للرخاء فالبقرة رمز للزمان وللأرض،وهي حيوان يقوم على أرجل أربع قد تكون رمز الفصول الأربعة التي تكون في مجموعها سنة كاملة .وقد ترمز البقرة إلى أن الزمان الكوني والإنساني يتم عبر محطات أربع:»كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون»[1]

(١) سورة البقرة : ٢٨

الفصل الثالث
فتوحات التأويل

كانت رؤيا الملك سببا لنجاة شعبه بعد أن أولها يوسف عليه السلام لا قبل تأويلها، فعلمنا أن الانتفاع بالنص لا يتم إلا بعد فهمه وفك رموزه. فلا فائدة ترجى من النص بدون وجود التأويل.إن صاحب النص نفسه لا يملكه ما دام لا يملك مفاتيح تأويله وفهمه، وإنما يملك النص من يملك التأويل.فالتأويل مفتاح النص؛ وكل نص قفل لا بد له من مفتاح؛أي أن كل نص يبحث عن مؤوله تماما كما تبحث الأنثى عن ذكرها والأرض عن سمائها والحوين المنوي عن البويضة.

فالتلاقح إنما يتم بالإثنين والولادة بالزوجين. وولادة المعنى كذلك لا تتم بالنص فقط، بل بالنص وقارئه (مؤوله).

وحينما يظهر المؤول، يبرز المعنى وتنكشف الدلالة. إن صاحب النص قد يغترب عنه، بينما المؤول يقترب منه، فلا قيمة للنص في ذاته. صحيح أن النص هو حامل المعنى ولكن هذا المعنى نفسه يحتاج إلى شاهد إثبات وهو القارىء المؤول.

إن اللغة هنا تتخذ نفس وضع كل أشكال الوجود الأخرى؛ أليس الإنسان أيضا نصا يبحث عن مؤوله ، أليس كل ما في الكون نصوص وتأويلات ؟. إن الكون كله لغات وإشارات تبحث عن كاشف لمعناها ومجل لسرها.

ولذلك كان التأويل علما ايمانيا أكيدا؛ فالمؤمن الذي دعي إلى رؤية الخالق من خلال آثاره ومصنوعاته، إنما يدعى إلى التأويل وإلى تجاوز الظاهر(الصنعة) إلى الباطن (الصانع).

إن الايمان في جوهر معناه، عملية تأويل لكل هذا الكون عبر الرجوع به إلى الأول،أي إلى صانعه وخالقه.

عبر التأويل يقع فتح ثلاثي الأبعاد:

فتح أول يطال النص ،حبث تنجلي مغاليقه فينجو من الضياع والإغفال ويستعيد اعتباره كنص له قيمته ودلالته وفائدته. إن رؤيا الملك كانت ستضيع بين يدي «علمائه» الذين احتسبوها أضغاث أحلام وكأنهم بذلك يدعونه إلى نسيانها والتلهي عنها.أما عندما أولها يوسف عليه السلام، فقد أصبحت هذه الرؤيا مصدر

نجاة. ولا شك أنها منذئذ ستستعاد بشدة وستبقى موضع اهتمام الناس.

فتح ثان على مستوى صاحب النص الذي سيستعيد ثقته في ما رأى، فهو ما رواه إلا لثقته في أنه يحمل معنى، وما دعا الناس إلى تأويله إلا ليقينه أنه يحمل معنى ويستبطن سرا.فلما زهد فيه المؤولون وجعلوه من أضغاث الأحلام، سفهوا عن قصد أو عن غير قصد ظنه واستهانوا بحسن توسمه، وضيعوا ما رآه ذا قيمة وفائدة، فجاء المؤول غوثا منقذا للنص وصاحبه ولذلك استبشر الملك بيوسف وقربه ودعاه إليه ورغب في استخلاصه لنفسه.ويظهر من خلال القصة أنه جعله من أقرب المقربين لاسيما لما عرف عفته وحسن خلقه ورأى من بيانه وكلامه:»وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين».[1]

إن الملك قد سعد بيوسف سعادة كبرى، دليل ذلك ما حباه به من إكرام، وإجابته له إلى طلبه بجعله على خزائن الأرض، كل ذلك لما حصل له من الفتح على يديه؛ فكان يوسف الخلّ الجديد لا بقرابة ولا بتمكين سابق، حيث لم يكن سوى سجين منسي في ديار غربة لا يعلم حاله إلا ربه تعالى، فحصل له تبدل الحال وتغيرها.

الفتح الثالث على مستوى مؤول النص:فقد كان يوسف عليه السلام كما ذكرنا، منسيا في بلاد غريبة وليس وراءه أهل يطلبونه،فهو السجين الذي توفرت فيه كل خصال الغربة والضياع والتيه. ومن قلب هذا التيه والضياع والنسيان الذي لا يعلم إلا الله مداه وشدته، تمتد إليه يد الإنقاذ والبعث وينجو بأعجوبة بما علمه ربه تعالى من تأويل الأحاديث.

إن التأويل هنا هو سلاح النجاة وأداة الإنقاذ التي مكنت يوسف من الخروج من غيابات السجن تماما كما أخرجه ربه من غيابات الجب؛ فكان ذاك الجب إشارة إلى هذا السجن،وكانت النجاة منه إشارة إلى هذه النجاة.

فبين الله تعالى ليوسف ولكل مؤمن أنه يرعى عبده في أسوإ الحالات، وأنه ينجي عبده حيث ييأس هونفسه من نفسه، وحيث يظهر موضوعيا أنه لم يعد

(١) سورة يوسف : ٥٤

هناك سبب للنجاة. بل إن البلوى تصبح عين سبب النجاة أحيانا وبابا إلى الرفعة.

فما ابتلي به يوسف عليه السلام من هجوم امرأة العزيز ونساء المدينة عليه قصد امتلاكه وما حصل من استعصامه، كان سببا بعد ذلك في تقدير الملك له وفي تقريبه واحترامه. صحيح أن هذه الفتنة كانت سببا في سجنه ،

ولكن العبرة بما تؤول إليه الأمور،وقد آلت إلى تحصيل المكانة والرفعة، فسبحان الله تعالى الذي يتم أمره كيفما شاء وحيثما شاء ووقتما يشاء لا غالب ولا راد لأمره، تعالى الله عما يصفون. هكذا يتبين أن النص كنز منجّ وقفل على باب مفتاحه التأويل. وهذا إذا كان قد برز في قصة يوسف عليه السلام على مستوى تأويل الأحاديث، فإنه في الواقع صحيح على مستوى كل النصوص. فالنص القرآني المقدس حديث :

«الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد.»[1]ويقول تعالى:» فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون.»[2]فالحديث في القرآن الكريم هو القصة:»هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين»[3]وقوله تعالى:»هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى.»[4]وهو الخبر والحدث:»هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة»[5]. وكلامه تعالى حديث:»ومن أصدق من الله حديثا»[6].

والملاحظ أن الله تعالى لم يعبر عن قوة التأويل التي لدى يوسف عليه السلام بأنها قوة تأويل الأحلام، بل قال :»تأويل الأحاديث»؛ فاعتبر الرؤى أحاديث. وقد تبين أن الرؤى تحمل معنى؛ فالأحاديث هي الكلام ذو المعنى.

ومادام القرآن كلاما يحمل معاني راقية، فهو حديث بل هو أحسن الحديث:»الله

(١) سورة الزمر : ٢٣
(٢) سورة القلم : ٤٤
(٣) سورة الذاريات : ٢٤
(٤) سورة النازعات : ١٥
(٥) سورة الغاشية : ١ _ ٢
(٦) سورة النساء : ٨٧

نزّل أحسن الحديث...الآية». وأحسن الحديث يحتاج إلى أحسن العلوم لتأويله وفهمه.لأن التأويل في كل تجلياته، هوعلم وليس ظنا ولا كلاما بلا أساس ولا مبدإ.ولذلك قال تعالى:»ويعلمك من تأويل الأحاديث...»[1].

فالتأويل ليس مقاربات ظنية أو على الأقل، ليس مجازفة فردية بإبداء الرأي حول نص ما سواء أكان هذا النص صحيحا أم خاطئا؛ بل هو سوق الفهم وفق نظام محكم متين يتعلق بكيفية استيعاب النص نفسه واستخراج الدلالة منه.فإذا انتظم الفهم والتزم حدودا وضوابط معلومة كان حينئذ تأويلا.

واضح أن من أخص شروط التأويل لكي يصبح علما، شدة تعلقه بالنص، وعمل المؤول على مستوى النص نفسه. فالتأويل كلام لاحق لكلام أول هو النص؛ فهو نص ثان تابع لنص أول، ولا يوجد تأويل في فراغ.

غير أن يوسف عليه السلام نسب منة علم التأويل إلى ربه تعالى ولم ينسبها إلى نفسه؛ فهل أن هذه النسبة دالة على أن هذا العلم من العلوم اللدنية التي لاتستمد إلا من خزائن الجود الالهي لخاصة المصطفين مثل سائر علوم النبوات والرسالات والكتب؟أم أن ذلك كان من باب رد الفضل إلى صاحبه الأول وهو الله تعالى دون اعتبار لكونه يحمل شروط وجوده الموضوعية، تماما مثل حمد الله تعالى على نعمة الغيث وعلى نعمة إنبات الزرع رغم أن الاستزراع يكون بيد الانسان نفسه؟ولكي ندقق المسألة نسوق السؤال التالي:هل أن علم التأويل علم اختص الله تعالى بأسراره ووهبه لمن يشاء من خاصته تماما مثل النبوة حيث جعل الله رسالاته حيث شاء؟ أم أنه علم يحصل بتوفر شروط فهم موضوعية وقابل لأن يكتسب من قبل أي إنسان طالب للفهم؟ .

لو عدنا إلى حياة يوسف بقدر ما جاءت في القرآن العظيم، لوجدنا أنه ابن نبي كريم هو الذي نبهه إلى أن ربه يعلمه من تأويل الأحاديث.إلا أنه لم يعاشر والده مدة كافية تسمح بأن نقول إنه استفاد علوم النبوة بل فارقه وهو بعد طفل صغير.وقد بين القرآن الكريم أنه كان يوحى إليه منذ حداثة سنه فقد أوحى الله تعالى إليه وهو في الجب:»وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم

(١) سورة يوسف : ٦

لا يشعرون.»[1].

كما أنه رأى برهان ربه:» ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين.».[2]فما هو هذا البرهان؟ قد يكون ملاكا وقد يكون خطابا منبها أو ناهيا...المهم أن يوسف عليه السلام كان محاطا بالعناية الالهية في كل مراحل تجربته الحياتية المثيرة.ويمكن الجزم بأنه لم يدرس علم التأويل في مصر لأنه لو درسه على أيدي علماء لكانوا أولى بالاجابة منه لما طالبهم الملك بتأويل رؤياه فقالوا أضغاث أحلام.

لم يبق حينئذ إلا أن نقول إن خاصية التأويل فتح الهي وهبة ربانية آتاها الله يوسف عليه السلام لكي يفهم باستعمالها مراحل وتجارب حياته المختلفة؛ كما أراد تعالى أن يجعله عبرة لمن أراد الفهم والاعتبار.

إن التأويل استباق للحدث لا بنبوءة معتادة أي عبر إخبار الله تعالى مباشرة أو عبر ملك من ملائكته بلسان التصريح،بل بنبوءة خاصة وعبر إخبار الله تعالى ولكن من وراء حجاب اللغة والرمز والرؤيا والمشهد.ولذلك فالتأويل ينتمي كعلم إلى علوم النبوة المباركة،والمؤول يسلك على نهج الأنبياء وإن لم يكن نبيا في بعض الأحيان.ولذلك نجد محمدا صلى الله عليه وسلم قد دعا لابن عباس بأن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل كما جاء في الحديث المشهور.

إن التأويل أحد أهم أبواب وراثة القرآن الكريم وسبلها.فالقرآن الكريم أحسن الحديث،وقد جاء حافلا بحديث الوجود باطنه وظاهره،جليه وخفيه، جليله وحقيره،صغيره وكبيره،أصله وفروعه،خالقه ومخلوقاته،أبديته وزمانه،وجاء جامعا لحديث وذكر الانسان،حياته وموته،بعثه ونشوره....

وكتاب بهذه السعة وسع الوجود فأظهره،يحتاج إلى كل العلوم وكل المناهج وكل آليات وإمكانيات الفهم.وما دام قد حوى حديث الغيب قبل حديث الشهادة،فإن علم التأويل يصبح حينئذ أوكد العلوم التي يجب الاستعانة بها واستعمالها في سبيل استجلاء غيب القرآن إذ هو غيب الوجود.فغيب القرآن

(١) سورة يوسف : ١٥
(٢) سورة يوسف : ٢٤

أي غيب الكلام،هو غيب الوجود.وينكشف غيب الوجود بانكشاف سر غيب الكلام؛ولا ينكشف إلا لمؤول.

إن أول سورة البقرة وعديد السور غيرها،أحرف غامضة الدلالة رغم أنها أحرف عربية؛فثبت حينئذ أنها تحمل معنى لأنها كلام، وكلام عربي مبين رغم غياب هذا المعنى،وما ذلك إلا لعجز آلة الفهم عندنا عن تأويل هذا الكلام إلا ظنا في أغلب الأحيان.ووجودها يشير إلى قابلية القرآن الدائمة للتأويل،وأنه دائما قادر على أن يوحي بالجديد. فعلم القرآن جديد أبدا ما دام في الوجود انكشاف وتجل أبدا. فالقرآن صورة الوجود الكلامية،وقد أحاط بالوجود فجاء بيانا لكل شيء؛ومادام الوجود في مزيد انكشاف،فالقرآن يحمل مزيد معنى مما لا يظهر إلا مع مزيد الانكشاف ومزيد الاكتشاف.

ولقد تبين لنا اليوم من علوم القرآن ما لم يكن أسلافنا من المؤمنين يعلمونه تحقيقا. فعلمنا بعض أسرار قوله تعالى:» والأرض بعد ذلك دحاها.»[1]وعلمنا بعض أسرار تحريمه تعالى للحم الخنزير:»حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير.»[2]وعلمنا بعض أسرار قوله تعالى:»وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب.» [3]

إن مثل هذه الآيات تفهم من قبلنا اليوم فهما ما كان لأسلافنا رحمهم الله أن يفهموه وإن حازوا الأجر كاملا بكمال تسليمهم لله تعالى وكمال ايمانهم به ويقينهم في صدق كتابه جملة وتفصيلا.

(١) سورة النازعات : ٣٠
(٢) سورة المائدة : ٣
(٣) سورة النمل : ٨٨

الفصل الرابع
الايمان و التأويل

يؤكد القرآن الكريم أن جوهر الحقيقة يكمن في الغيب :»الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب».[1]فالايمان أساسا، هو مقدرة على الاقتناع بالغيب ويقين في وجوده رغم عدم ظهوره. وقد بنى الله تعالى الكون كله على هذه الشاكلة، فأظهر الدليل وأخفى المدلول، وأظهر القفل وأخفى المفتاح،وجلى الدائرة وأخفى محورها،ودعا الإنسان أساسا إلى الاستدلال على المدلول بالدليل،والايمان بالخالق من خلال رؤية المخلوق، واستجلاء المسبب بملاحظة السبب، واستخراج المعنى من مطالعة الحديث،وذلك على التحقيق معنى النظر والتأمل والتدبر والفكر والتأويل.

وإذا كان القرآن الكريم حديثا؛ فإن المؤمن هو الذي سيقف من هذا الحديث موقف المؤول المطالب بوعيه واستيعابه وفهمه. أما الكافر فسيعتبره أساطير الأولين مثلما اعتبرت حاشية الملك رؤياه أضغاث أحلام. فالمؤمن ضروري لاكتمال موقف الايمان.والقرآن رغم أنه كتاب الحق المبين، لا يمكن أن يفيد قوما صما،عميا،وبكما. وإنما يفيد قوما «يدّبّرون» و»يعقلون» و»يسمعون». إن القرآن الكريم رؤيا كاملة جامعة لحقيقة ومعنى الوجود، وخاصة الوجود الإنساني. والله تعالى إذ أنزله، فقد أذن بكشف سر الوجود في مطلق معانيه ومحدودها،وبهتك أستارالحقيقة والاطلاع عليها كما هي.ولا يتم هذا إلا للمؤول القادر على استخراج المعنى من الكلام، وعلى رؤية الصورة من خلال الكلمة. فوراء كل كلمة صورة، ووراء كل عبارة مشهد.

إن المؤول حينئذ، يمتلك القدرة بواسطة القرآن الكريم على استباق الأحداث،أي أنه لا ينتظر لحظة الموت أو البعث ليصبح بصره حديدا بل يكتسب البصرالحديد في الحياة الدنيا، فيرى الحياة والموت والبعث، ويرى لحظة القيامة، ويوقن بمشاهد الجزاء والعقاب، ويرى الجنة والنار، ويرى أهل الجنة يساقون إلى الجنة وأهل النار يساقون إلى النار؛وكل ذلك لشدة وعيه بالعبارة، وشدة فهمه لمضمونها، ومعناها تأويلها الحقيقي.هكذا يلتقي التأويل بالايمان التقاء لا فكاك منه.والحقيقة أن المؤمن الموقن حق اليقين، هو أكبر المؤولين على الإطلاق لأنه بايمانه أعلن أنه يرى الآخرة وراء الأولى، والبعث بعد الموت، والجنة

(١) سورة البقرة : ١ _ ٣

بعد البلوى، والله وراء الانسان.أي أنه آل بالحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة،وآل بالإنسان إلى ربه،وذلك هو التأويل الأكبر الذي ليس بعده تأويل. ألم يقل الله تعالى في كتابه العزيز:

»ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون.هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون.«.[1]

فالكتاب المفصل على علم،هو القرآن العظيم الذي جاء مبينا كل شيء، ولكنه يبقى دائما وأبدا بيانا،والبيان لغة وإشارة وكلمة ونص يشير إلى حقيقة، والمطلوب والمقصود هو هذه الحقيقة. فالمؤمن يجمع بين البيان وبين الحقيقة، والكافر يرفض الجمع ويكذب النص ويلغي المعنى استهانة بالنص معتمدا على الفاصل ما بين اللغة والحقيقة والذي هو كاللحظة الفاصلة ما بين الحياة والموت واللحظة الفاصلة ما بين الدنيا والآخرة.أما المنافق فيعتمد على قابلية النص وانفتاحه ظاهريا لأكثر من معنى،فيتبع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة متناسيا أنه رغم تعدد وجوه الدلالة فيه يبقى المدلول واحدا أحدا فردا صمدا. فالمعنى في الرؤية التوحيدية أبدا واحد لا يتثنى وهذا جوهر علم التوحيد. ولذلك جاء القرآن (الكتاب،البيان،النص،أحسن الحديث..) هدى ورحمة لقوم يؤمنون. فبايمانهم الذي هو جمع بين النص ومقتضاه، وبين الكلام ومدلوله، وبين الحديث ومعناه، اهتدوا ورحمهم الله تعالى. فايمانهم هو عين التأويل للنص حيث تمكنوا من رؤية الحقيقة كاملة وهم مازالوا في الحياة الدنيا.

أما الكفار،فهم الذين عجزوا عن التأويل، واستتر عنهم المعنى بما هم صم عمي بكم، أتباع أهواء ودناءات وأباطيل؛ ولذلك قال الله تعالى :»هل ينظرون إلا تأويله».

فهؤلاء الذين لم يعترفوا طوعا، أي لم يقدروا على التأويل، سوف ينتظرون إلى أن يتأول النص فعلا وذلك عبر ظهور مقتضياته ومعانيه ومضامينه. فعندما

(١) سورة الأعراف : ٥٢ _ ٥٣

يرون الموت رؤية عيان، وعندما يرون البعث والحساب، حينئذ يؤمنون:»يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق.» حينئذ يبحثون عن الشفعاء، بل يطلبون ردهم إلى الدنيا ليعملوا غير ما كانوا يعملون، أي ليعملوا بمقتضى العلم الجديد؛غير أن الله تعالى،العليم الحكيم،لا يردهم بل يقول فيهم:»قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون.» يتبين لنا حينئذ،خطورة التأويل كسبب رئيسي للايمان وكسبيل بالتالي للنجاة وإنقاذ النفس. إن المؤول،بفضل صحة آلة الرؤية والاستبصار لديه وهي القلب خاصة وما آتاه الله من توابع(أدوات ووسائل المعرفة والادراك)، يصل إلى الاقتناع واليقين بصحة مقتضى ومضمون النص.

فيعمل حينئذ بمقتضى علمه واقتناعه، فيصبح على صراط مستقيم.

ولا يلبث عاملا بما يعلم يقينا حتى يتوفاه الله تعالى فيرى حينئذ رأي العين، حقائق كان أيقنها بقلبه؛ فحينئذ يتم نوره وتأتيه البشرى:»جزاء بما كانوا يعملون».إن قوة التصديق تنبع من قوة التأويل، أي أنه كلما كان الإنسان أقدر على التأويل، كان أقدر على التصديق واليقين. فأكثر الناس ايمانا هم أكثر الناس مقدرة على التأويل. فالتأويل على التحقيق، هو السماع العميق لمدلول الكلام وللرسائل التي تعطيها المظاهر بشأن بواطنها؛ إذ أن كل ظاهر يعطي رسالة تنبئ عن باطنه. والتأويل هو الرؤية بعين البصيرة الباطنة لباطن الكلام، أي لباطن النص رؤية تجلّي المشاهد وتصل إلى خفايا المنطوق والمشهود؛ ألم يقل العبد الصالح لموسى عليه السلام:» قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا»[1].

هذا العبد قال فيه الله تعالى:» فوجد عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا، وعلمناه من لدنا علما قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا.قال إنك لن تستطيع معي صبرا.وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا «[2].

يبرز المؤول سميعا بصيرا مبينا، على عكس الصم العمي البكم الذين لا يعقلون؛ فيهتدي إلى العقل التام بالاهتداء إلى معقولية كلمات الله تعالى،أي معقولية

(١) سورة الكهف : ٧٨

(٢) سورة الكهف : ٦٥-٦٨

النص بحقائقه الواضحة ،الصادقة الصافية.فآخر عقل الكلام الأشياء والوقائع. فالواقع عقل الكلام.

يصدق التأويل بتأييد الهي خاص، لأنه أبدا مغامرة ومجازفة بقطع المسافة بين النص والحقيقة،بين الدال والمدلول، إنه تعويل على النص واعتماد على البيان.

وبمعنى آخر، إنه رضا بمجرد العهد والوعد رغم تأجيل الموعود؛ وذلك بالضبط معنى أن يقدم المؤمن نفسه وماله لله تعالى في سبيل الجنة الآجلة، فيندفع نحو الشهادة غير خائف، بل موقنا شجاعا. فالتأويل الحق هو شهادة صادقة قائمة على ثقة مطلقة في الله تعالى.والايمان العميق ثقة عميقة في الله تعالى أنه أصدق موف بعهد قطعه. ولذلك عقب الله تعالى على عهد بيع المؤمنين أنفسهم وأموالهم لله قائلا :» ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم».[1]

إن ممارسة التأويل ممارسة للعلم، والالتزام بحقائقه شهادة معرفية، والعمل عليها شهادة مطلقة ليس لها جزاء سوى الجنة. يقترب بنا التأويل وأبعاده ومعانيه كثيرا من مسألة سر خلق الانسان وحقيقة دوره فوق الأرض. فالإنسان من معنى ما قد وجد من أجل أن يشهد لله وحده رغم شرك الشيطان، وأن لايعترف إلا بالوحدة وهو في عالم الكثرة، وأن يؤمن بالسماء وهو فوق الأرض. إنه وجد من أجل أن يذكر لحظة الوحدة الاولى بينه وبين خالقه والتي غيّبها الانفصال المؤقت في الحياة الدنيا. فالتأويل استعادة للعهد الأول وللمشهد الأول وللحقيقة الأولى.إنه الآلة التي تمكننا من اختراق الزمان وصولا إلى ما قبل الزمان وما بعده.إنه القوة المعرفية التي تصل الانسان مباشرة بالوجود بعد تجاوز البيان إلى المبين. وإذا كان كذلك، فالتأويل هو حديث الروح، لأنه لا مقدرة لغير الروح على ذلك. إن الروح الانساني بما هو من محتد الهي لا شك فيه؛ هو القادر وحده على اختراق السجف وتجاوز الشبهات إلى اليقين والنور، أي على رؤية النهار في الليل وذلك هو التأويل: رؤية الحقيقة رغم ليل الثوب الذي لبسته وفي ظلمة الجسد الذي احتواها.

(١) سورة التوبة : ١١١

الفصل الخامس
انطفاء التأويل

1 _ تجربة الروح و الجسد

إن الروح قادر على رؤية الحقيقة المختفية في ثوب العالم لأنه هو نفسه يمر بنفس هذه المعاناة والتجربة؛ تجربة الكون في جسد غريب يموت ويحيا، يمرض ويصح وتعتريه الأحوال، بينما هو (الروح)، حال واحد لا يتبدل وحياة لا يعروها موت. فإذا نجح في تجربة الخروج من الجب رغم الوقوع فيه، وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى: « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.»[1] ؛ يخرج عندئذ بنور جديد ينشأ عن التجربة، حيث يقع في خضمها فطامه، ويفصل عن العائلة والوالد والأم ليتولاه الله تعالى وحده بالتربية والالهام والعطاء والمنّ حينا بعد حين، ويدفعه بقوة اليقين والنور الذي في باطنه نحو النهايات الصالحة لكل تجربة.

إن الجب فصل يوسف عليه السلام عن الخلق، والمفصول عن الخلق يتمحض للحق.وكان من سر سعادة يوسف ومن منّ الله تعالى عليه أنه فصله في سن مبكرة ليعلمه ويجتبيه. وفعلا، فإنه منذ لحظة الرؤيا التي ما لبثت أن أعقبتها حادثة الإلقاء في الجب ، بدا أن الله تعالى يسير التجربة اليوسفية بإرادته عز وجل وبتدبيره المحكم العجيب.

لقد تحرر يوسف من الظلمانية لما أغرق في ظلمات الجب وأخرجه الله تعالى منه؛وكان لابد لهذه الحرية أن تبتلى.وبالفعل، فإن النور الذي أوتيه هبة من ربه سبحانه وتعالى سيتعرض للاغتصاب والاستقطاب من قبل أعتى قوة يمكن أن تستولي عليه وتغريه: تلك امرأة العزيز؛ جسد ناضج،متبرج ،مستول بحق الرعاية والايواء، مستقطب بقوة الأنوثة الداعية الجذابة.

وفي تجربة مغلقة تم البلاء المبين:» وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون.ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه.كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين.»[2]

(١) سورة يوسف : ١٥

(٢) سورة يوسف ٢٣ _ ٢٤

امرأة تشتعل جاذبية وقوة ورغبة في الابتلاع التام لشاب مليىء صحة وجمالا على ضعف في سلطانه الظاهري، وتستعد بكل الوسائل للانتصار بالاغراء، فإن لم تفلح فبالقوة. وبالفعل، فإن تغليق الأبواب وجميل القول يعقبه الانقضاض على الفتى الشاب في عماء وجنون لولا أن الله تعالى أراد لعبده النجاة. فماذا كان موقف يوسف عليه السلام؟ صحيح أنه استعاذ بالله أن يخون سيده الذي أحسن مثواه، وتذكر سوء عاقبة الظلم وجابه المرأة بذلك. غير أنه بعد أن همت به هم بها ولم ينقذه إلا رؤية برهان ربه.فما هو برهان ربه؟

واضح أن هذه الكلمة قابلة لأن تؤول بطرق شتى، فبراهين الله تعالى لا تحصى، والله تعالى على كل شيء قدير. ونقارب، وبالله التوفيق، فنقول إنه وقد أقبل بكليته على المرأة وهم بها،أصبحت هي موضوع رؤيته ومجال بصره، شعلة تلتهب من الإثارة والاغراء والجمال المثير؛ أطلعه الله تعالى في اللحظة نفسها على باطنها، فرأى الشيطان الكامن فيها يقودها ويحركها. وعندئذ لم يعد ظاهرها (جسدها)، يمثل شيئا بالنسبة له.

هكذا،وعبر رؤية خارقة، وبعين بصيرة خاصة، تجاوز يوسف عليه السلام ظاهر المرأة إلى باطنها فرأى النار التي تشتعل في هذا الباطن، نار الشيطان الكامن فيها والذي يدفعها بكل قواه، ورأى الظلمة الكاملة التي تكتنف هذا الباطن، وحينئذ تراجع وارتد. فيستحيل أن يهم الانسان بالنار ولو لامسها لأحرقته. فقد رأى النار رأي العين بلا شك ولا مواربة ولو تقدم لاحترق وانتهى.يقول الله تعالى:» كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين.». وعبر هذه الرؤية الخارقة نجا من ظلمة ماحقة، ومن نار ساحقة كانت ستأكل روحه أكل النار للهشيم. وعبرها أيضا أوتي بصفة نهائية قوة التأويل : قوة اختراق الظاهر إلى الباطن. فبعد اختراق الجسد الملتهب لتلك المرأة،ورؤية باطنها المظلم الموحش،لم يعد جسد مهما بلغ من الظلمانية،قادرا على أن يستعصي على يوسف. لقد رشّد الله ملكة التأويل لديه وأنضجها في تجربة واحدة كبرى وأعطاها أقصى إمكانياتها.منذئذ أصبحت الأجساد جثثا هامدة بين يديه،وافتقدت إلى الأبد سلطتها عليه.

ولكي يبين لنا الله تعالى هذا المعنى بوضوح،حدثنا عن نساء المدينة من علية الطبقات اللواتي أقبلن على يوسف إقبال الذباب على العسل ، فما زدنه غير نفور وإحصان واعتصام بربه :» وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين.

فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم. قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين. قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين.فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم.»[1]

إننا أمام تجربة من أغرب التجارب وأثراها في الاستقطاب والامتناع محتواها بوضوح :الجسد الذي يستقطب النور والظاهر الذي يحول أن يستهلك الباطن.

في البداية يحاول جسد واحد باستعلاء شيطاني،أن يمارس التجربة فيفشل. غير أن امرأة العزيز لم تكن من ناقصات الفهم ولا من قليلات الدراية رغم أنها للأسف كانت مغوية.لقد علمت في خضم تجربتها مع يوسف أنه قوة قاهرة عصية على أعتى الأجساد،ولا شك أنها كانت مدلة بجمالها ومكانتها وهيبتها؛فلما سمعت أن نساء المدينة من طبقتها يتغامزن ويتناجين بحديث ضلالها،خططت لتسفيههن والعبث بأمانهن الكاذب وإحصانهن المزعوم.كانت تعلم يقينا أنهن ستنهزمن لما ترين يوسف،وسوف تفعل كل واحدة منهن ما فعلته هي لما سقطت صريعة أسر النور الكاسر،نور الباطن الذي قوي في هذا الشاب الملهم المستنير حتى أشع على ظاهره فأعطاه جمالا وهيبة آسرة. وبالفعل،ما إن رأت نسوة المدينة يوسف حتى تهن عن أنفسهن وضللن عن وقارهن ومزاعمهن،بل وجرحن أيديهن عن عمد أو غير عمد،وكأنهن بذلك ترمزن إلى أن سكينا قد ضرب أحشاءهن في العمق،وأنهن تطلبن بل وترضين بهذا السهم ولو أدماهن. وقد ذهبن في الافتتان كل مذهب حتى لقد حسبنه ملكا كريما لا بشرا من سائر البشر.

(١) سورة يوسف ٣٣ _ ٣٤

حينئذ توسع الجسد الواحد في أبعاده،أي في ممكناته وصوره المتعددة. فامرأة العزيز لم تعد وحدها الطالبة لوصال يوسف، بل أصبحت نسوة المدينة يشاركنها الطلب.فتبين بذلك عديد المعاني:

•أولها،أن الجسد في كل أشكاله وتجلياته،هو نص واحد مغو يرغب في استهلاك واستقطاب وامتصاص النور.وقد ازداد يوسف عليه السلام بهذه التجربة تمكينا وتمكنا من علم التأويل.

• ثانيها،أن قوة التأويل وعلمه،هي قوة تجاوز الأشكال مهما تعددت،إلى الحقيقة الواحدة الكامنة فيها. فنساء المدينة كثيرات، وهن وجوه متعددة لحقيقة واحدة. فكان موقف يوسف الوحيد منهن،والمتمثل في الامتناع والتعفف والاعتصام بالله تعالى، دليلا على أنه حاز المنعة من إغواء الظاهر بكل تجلياته. ولو أغواه وجه واحد من هذه الوجوه، لفقد النور تماما.فوراء الوجه الواحد الظاهر تكمن كل الوجوه الأخرى.

• في قول يوسف عليه السلام:»رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه»، صدق وفهم عميق.فهو يعلم أن استقطاب النساء و أسرهن سوف يوقعه في عبودية دائمة، وسوف يؤدي إلى إضعافه وفقده النور الباطن الذي أوتيه وهو على التحقيق نور الروح الكامن في كل واحد منا. ولذلك فضل السجن على أن يقع في الغواية.فالسجن المعروف لن يأسر منه سوى الجسد، وأحب إلى يوسف أن يؤسر جسده من أن تسجن ذاته فيفقد حريته. ولذلك نلاحظ أته في قلب السجن وبينما كان جسده أسيرا،كان روحه طليقا محلقا،وكان يعيش أفضل لحظات حياته،حيث مارس الدعوة إلى الله، فقام بدوره المطلوب واستخلافه المفروض، كما قام بممارسة التأويل بكفاءة عجيبة وبنور باهر سوف يوصله إلى النجاة والتمكين في وقت لاحق:

» قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون. يا صاحبي

السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار. ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون.»[1]

هكذا ،وفي قلب السجن يحدد يوسف عليه السلام انتماءه إلى ديانة ابراهيم عليه السلام،فينبئ بذلك أنه من آل البيت المكرمين،وأن علمه من جملة علومهم التي يتوارثونها. وإذ يعلن عن عقيدة التوحيد، فإنه بذلك يبذر بذرة الايمان التي ستزدهر بعد ذلك بظهور موسى عليه السلام، وبذلك أيضا يكون أحد الشاهدين على زيف عبادة تلك الأسماء التي لا تحمل معنى والتي عكف المصريون على عبادتها القرون الطوال.

من الواضح إذن،أن التأويل والتوحيد يمثلان خطا واحدا. إن الموحد هو الذي تفطن إلى وحدة المعنى في كل الكون،فعرف وحدة الخالق الموجد،وذلك هو أيضا عمل التأويل الذي هو سعي إلى المعنى ووعي عميق بالقيمة الكامنة وراء الأشياء وحركاتها.

يبرز يوسف عليه السلام كإنسان حامل لقوة وطاقة روحية خارقة بدت آثارها على محيّاه، وظهرت بدون موارية حتى في بنيته الحسية الجسدية. ومن هنا نفهم سر جمال يوسف الفتان.فسر ذلك أن ظاهره كان مثل باطنه وصورة منه،أو قل إن ظاهره كان هو باطنه أو يكاد.هذا هو سر جماله العجيب والسبب في كون النسوة لما رأينه:» أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم.» [2]

إن تلك النبوءات الخارقة، وتلك التأويلات العجيبة لشتى الأحاديث والرؤى،ليس يقدر عليها إنسان بباطن مخالف لظاهره أو بظاهر عصي على باطنه وحجاب عليه. إن مثل هذا الإنسان بباطن وظاهر متخالفين، لن يجد إلى باطن المعنى سبيلا لو قارفه إلا ظنا. أما أن يراه يقينا، فهذا مما لا مقدرة له عليه. فلا يقدر على رؤية باطن المعنى إلا من يقدر على رؤية باطن نفسه؛ ولا يرى باطن نفسه إلا من أظهره، أي من أصبح باطنه عين الظاهر وظاهره عين الباطن؛ فأصبح الكلام

(١) سورة يوسف : ٣٧ – ٤٠
(٢) سورة يوسف : ٣١

له حينئذ عين المعنى، والمعنى عين الكلام.فإذا حدّث بالحديث عرف تأويله بدون شك ولا اختلاف.إن هذا يبين ويفسر لنا سبب جهل أغلب الناس وسبب الحجب التي يعيشون فيها. فأغلب الناس يخالف باطنهم ظاهرهم، ويدلي ظاهرهم بما لا يضمرون في بواطنهم. وهم يمارسون لعبة النفاق هذه وهي لعبة شيطانية ولا شك، إلى أن تقسو قلوبهم وتنغلق فلا يجدون إليها سبيلا؛ ويفقدون بذلك أعز ما أعطى الله عبدا، تلك عين البصيرة الباطنة التي قال فيها تعالى:» فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.»[1]

يعطي الله الإنسان باطنا مستنيرا وقلبا حيا قمرا منيرا ليظهره ويعمل بهديه، فإذا به يعمل بنصيحة ابليس، فيخفي هذا القلب ويتلهى بالظاهر وما ظهر. ورويدا رويدا ينفصل عن حياة الباطن بل وينسى أن له باطنا. فإذا التفت حينئذ إلى الكون لم ير فيه سوى ظاهره وعجز عن رؤية باطنه، أي عن مطالعة سره ومعناه وقراءة رسائله. حينئذ يكفر وليس له سوى الكفر سبيلا. فمن عمي باطنه لا يستطيع رؤية ما بطن؛ إنه يصبح رهين الظاهر:هو عالمه وهو حدّه. فإذا ضاق به زاده الشيطان ومد له في الغي، فصور له الباطن بصور الظاهر، فلا يجد في الباطن إلا صور الظاهر، وتلك علامة من لبسه الشيطان وقارنته الجنّة والشياطين من كل نوع؛ إذا عاد إلى باطنه لا يرى فيه إلا صور الظاهر وأهل الظاهر وأحداث الظاهر، فحينئذ يتأكد أنه قد حيل بينه وبين قلبه. فذلك هو العمى الذي ما بعده عمى.

إن الباطن هو سر الإنسان ،وهو روحه ومعناه. وبقدر ما يبقى هذا الباطن صافيا يبقى المعنى تحت طائلة الانسان وفي يده، فلا يند عنه ولا يغيب ولا يعتو.أما إذا فقد الإنسان باطنه فإنه يضيع وإلى الأبد صلته بالمعنى اللهم إلا أن يتوب فيكون لله معه شأن آخر.

فما هي أخطر الأمراض التي تهدد بمحق النور الباطن؟ .

(١) سورة الحج : ٤٦

2 _ الزنى : الظلمات و النور

في القرآن الكريم سورة اسمها سورة النور ركزت بدون مواربة على فاحشة الزنى ومقارباته، وأحاديث الإفك وإبراز العورة وسترها، ودخول البيوت والاستئذان؛ وأعطت بتفصيل كامل المحارم الذين يمنع على المرأة إبداء زينتها أمامهم ، وفصلت في شأن الطعام المباح... وليس من باب المصادفة أن يكون موضوع سورة النور مسألة الزنى وعورة الجسد وطعامه. ففي هذه النقطة بالذات يكمن أخطر شرك يهدد النور بالانطفاء.

وفي سورة يوسف، يبرز الابتلاء بخطر الوقوع في الزنى أحد أهم الابتلاءات التي اعترضت هذا الرجل المؤمن المستنير. فما إن بلغ أشده وآتاه الله حكما وعلما حتى شرعت امرأة العزيز في مراودته عن نفسه :»ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين.وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله...الآية.» [1]

فما هو هذا الحكم الذي أوتيه يوسف وهو غلام في قصر العزيز مشترى بنقود؟ واضح أنه لم يكن يملك في تلك اللحظة حكما بالمعنى المعروف للحكم. فحينئذ إما أن يكون الله أشار إلى بداية تهيئته للحكم،الأمر الذي سيحصل بعد فترة، وأن الأمر نزل ببداية التهيئة وأمرالله يتنزل متى شاء الله تعالى لا راد لحكمه. فلقد أوحي إلى يوسف وهو بعد في الجب بأنه سينبىء إخوته بأمرهم وهم لا يشعرون. أو أن يكون الله تعالى آتاه حكم باطنه أي حكم نفسه فلا تستعصي عليه ولا تستسلم لشيطان مغو بشتى أنواع الغواية والضلال. وهذا المعنى في تفسير قوله تعالى:» آتيناه حكما «، أبلغ وأرجح من التأويل الأول لأنه يساوق مسار التجربة، ويفسر حقيقة الموقف اليوسفي من امرأة العزيز وأسرار اعتصامه وخفايا عزته وعفته.

وإذ آتى الله تعالى يوسف حكم نفسه، فامتنعت عن إغواء الشياطين، ودعمه بالعلم الذي جعله على بصيرة من أمره وزاده تثبيتا ووضوحا وعزما.ولعل العلم أن يكون نتيجة وثمرة لهذا التحكم الراسخ في النفس. لما أوتي يوسف الحكم

(١) سورة يوسف : ٢٢ _ ٢٣

والعلم،كسب في الحقيقة السلاح الذي سيقاوم به أخطر محاولة للاستلاب الشيطاني وأسوأ عملية استبلاه واستغفال يمارسها الشيطان على الانسان، تلك هي الوعد باللذة والاستيلاء وجنة الأرض. كانت امرأة العزيز تمثل ولا شك كل تلك الوعود بالنسبة لشاب غريب يبحث عن المكانة والسعادة والانتماء.إنها فرجة في جدار السلطة المنيع،تفتح الباب أمام رضا السلطة بلا حد،واستسلام البيت بأهله تحت إمرة هذا الغلام الذي يعلم أنه ليس أكثر من إنسان أنعم عليه رب هذا البيت.

بعبارة أخرى، إن امرأة العزيز هي جنة الشيطان، وآخر كيده وأكبره وأشده. فبماذا يستطيع الشيطان أن يغوي يوسف عليه السلام أكثر مما احتال له واستعمل لإغوائه ؟ إن الشيطان ومن خلال امرأة العزيز، يلعب كل لعبته، ويضرب بكل عنفوانه، ويجلب بخيله ورجله، ويعد أكبر الوعد. وفي مثل هذا الموقف، ليس أمام إنسان غير مؤيد إلا أن يسقط ، بل إننا نعلم أن الذكر من بني البشر يسقط صريع دعوة الأنثى في ظروف أقل من هذه إغراء وغواية. فما السر في امتناع يوسف عليه السلام ؟ ونعيد الجواب: إنه الحكم والعلم اللذان أوتيهما.فنفسه التي هي مطلب الشيطان منه، قد أوتي حكمها فلم تستعص عليه لما دعته امرأة العزيز،بل شكمها وراضها وألزمها ما ألزمت من طاعة الله ومن سير على المنهاج القويم:منهاج العقل المستقيم:»قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون.»[1]

في خطاب يوسف يبرز الوعي الصحيح بموقعه في المنزل، والاعتبار الصحيح للعمل الذي قدمه له صاحب الدار، والفهم الصحيح لنوعية الغواية والدعوة التي تدعوه إليها المرأة الضالة. إن العقل المستنير يقود النفس ويبقى محافظا على رؤيته للحدود الواضحة البينة في أشد اللحظات حرجا،وهذا هو نور الحدود التي حدها الله تعالى. ماذا كان يوسف سيقول لو كلمه الشيطان مباشرة أكثر من هذه الكلمات التي يجب أن يقولها كل مؤمن ساعة الابتلاء المبين. إن الاعتراف العميق (الايمان) بحق الله تعالى وحده في النفس، هو الذي نبه يوسف عليه السلام إلى حق العزيز وحده في امرأته. ولذلك ذكر يوسف العزيز

(١) سورة يوسف : ٢٣

بقوله «ربي»، فذكره مدلاّ بنعمته عليه.

فدل بذلك أنه يتكلم من مقام النفس المنكسرة لربها الأكبر، الذي ترى نعمته عليها ظاهرة وباطنة، والتي تعلم أنه من الظلم العظيم إنكار حق الله فيها والاعتداء على حرمات الله. مَن غير المؤمن المسلم المستكين يستطيع أن يقف هذا الموقف الباهر؟ إنه نور التربية الالهية والتولي الالهي ليوسف عليه السلام وتلك نتيجة وثمرة ما آتاه الله من حكم وعلم. فلما حكم نفسه، ظهر من خلال جوابه القوتان معا:الحكم من ناحية «معاذالله «؛ والعلم من ناحية ثانية:» إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون.»

لماذا كان الزنى أخطر أمراض النور وأكبر جالب للظلمة ؟

جعل الله العلاقة الزوجية رمزا دالا على علاقة النفس بربها تعالى، ومظهرا لخفايا هذه العلاقة وأسرارها وكاشفا عن نقائصها وكمالاتها. فسكون هذه العلاقة وانتظامها عبر آصرة الوفاء والمودة والرحمة، دليل على أن النفس الانسانية خامدة بين يدي ربها سبحانه، وأن الاتصال محكم والرابطة قوية والايمان عميق والغربة ملغاة: « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.»[1]فالعلاقة الزوجية آية من آيات الله تعالى؛ وكلما ذكرت كلمة الآية فنحن أمام دلالة ما من دلالات الوجود الالهي الشامل الكامل.

وهنا دلالة الزوجية دلالة الاتصال والارتباط والسكون، سكون الذات إلى الذات، والنفس إلى النفس، بل أكثرمن ذلك دقة، سكون النفس إلى نفسها، أي إلى جزئها أو أصلها. فالسكون هنا ما طلب إلا لوحدة النفس أصلا، وذلك دلالة على اتحاد الانسان وخالقه تعالى الذي لم يدعه إلى السكون إليه إلا لأنه نفخة من روحه، و قد أراه إمكان ذلك، بل جعله في الظاهر محبا لذلك طالبا له. حيث يطلب الزوج زوجه لا لشيء إلا لما فطر عليه من رغبة في الاكتمال والاتصال. فكانت هذه العلاقة الزوجية آية من آيات الله تعالى وحجة له تعالى على عبيده من البشر الذين يعظمون شأن هذه العلاقة فيقيمون لها الأفراح ويبنون

(١) سورة الروم : ٢١

لأجلها البيوت، ويعدون لها أحسن العدة؛ ثم يرون بأم أعينهم كيف يحصل لهم منها الخير والولادة والعطاء.

فإذا طولبوا بعد ذلك بتزويج أنفسهم وتحقيق سكينة قلوبهم بالأوبة إلى الله تعالى والوفاء له وحده عرفانا بجميله وإحسانه وحسن خلقه للإنسان، إذا بهم يلجون ويشركون. فالعجب العجب ممن يكبر خيانة زوجته له ولا يكبر خيانة قلبه لربه! فبأي حق طالب زوجته بالوفاء إن لم يكن بحق المحبة وحق الإحسان وحق الرحمة وحق الزوجية. فإذا ما أقام هذه الحقوق واعتبرها كضوابط وحدود في الحياة الزوجية، فهلا اعتبرها في العلاقة التوحيدية التي تجمعه بربه تعالى؟.

إن الاخلاص علامة التوحيد وإن الزنى علامة الشرك، فلا يخلص إلا موحد ولا يزنى إلا مشرك. وكما أن كمال علاقة الزوج بزوجه أن يطلبه لذاته لا لشيء من مال أو حسب أو جمال؛ فإن كمال علاقة الانسان بربه،أن يعبده لذاته لا لاعتبار نفعي دنيوي.

فرغم أن الله تعالى لم يمنع من الاستنجاد به في كل حين، إلا أنه حرض دائما على طلب الباقيات الصالحات لأنها خير ثوابا وخير مردّا. فكمال عبادة العابد طلب الرجعى إلى ربه بالعبودية المحضة :»يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي .»[1]

ولا تطمئن النفس الانسانية كمال اطمئنانها إلا بالسكينة. فالطمأنينة علامة السكينة وثمرتها. ولا سكينة إلا بالعودة إلى فجر الذات، أي إلى الانسان عندما كان ذرة في يد الرحمن شهدت له بالتوحيد والعبودية الخالصة بدون أي اعتبار إلا أنه الخالق وهي المخلوق. ولذلك كانت هذه الآية خاتمة سورة الفجر وهو ميعاد العهد الأول بين الانسان والله تعالى.

إن إخلاص الزوجة (المرأة)، لرجل واحد هو زوجها، دلالة ورمز على ضرورة إخلاص الانسان لرب واحد أحد بدون شريك. وإن إباحة علاقة المرأة بآخر (الزنى) وهي في حالة زوجية، هو في الاعتبار مماثل لإباحة عبادة الانسان لرب آخر مع ربه. وقد قام الدين على أن الشرك أكبر الظلم، وأكبرالمحرمات

(١) سورة الفجر : ٢٧ _ ٣٠

المنهيات، وأكبر حدود الله الذي لا تغتفر مقارفته.

يقول تعالى في سورة النساء:

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما.»[1]. ويضيف تعالى في نفس سورة النساء:» إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا. إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا.»[2].

إن نظام الزواج وعلاقاته وحدوده، نظمه الله تعالى ليكون نسقا كاشفا عن نظام العبادة وحدودها وأبعادها. فالزواج عقد شرعي، والعبادة عقد شرعي عن تراض. ولذلك يحرم في ديننا زواج المكره أو المكرهة، ولا يفعله إلا جاهل بحقائق الدين، إذ «لا إكراه في الدين».[3]

ثم إن الزواج معاشرة يفترض فيها الدوام والوفاء والاخلاص، فإذا اضطربت هذه العلاقة، كان ذلك دليلا على اضطراب خط العبودية والتوحيد. وعلى كل حال، فإن الله الذي لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، يدعو الزوج إلى تجاوز أغلب أخطاء زوجه، ولا يجعل له عليها أو لها عليه سلطانا مبينا إلا عند حصول الخيانة، وهي عين الشرك.

فالزنى في الاعتبار، عين الشرك، والشرك عين الظلمة. فمن زنى فقد أدخل نفسه في عين الظلمة لأنه مارس أكبر الظلم بإدخال نفسه بالكامل في مجال محرم بالكامل؛ ولم يترك منها شيئا يمكن أن ينظر الله إليه نظر الرحمة فيغفرله، لأن لذة المباشرة الجنسية تستغرق كل كيان الانسان ولابد، وحينئذ ينتفي في موضع حرام، فيجعل الله للشيطان عليه سلطانا مبينا يستغله اللعين في امتصاص كل نور الذات وفي إظلام كامل محلها.

ثم إن السبب الرابط بين الزوجين هو أصلا، الحب والرحمة والمودة، ولا إكراه بتاتا في علاقة أحدهما بالآخر. ولذلك شرع الله تعالى الطلاق في كل الأحوال

(١) سورة النساء : ٤٨
(٢) ن م : ١١٦ _ ١١٧
(٣) سورة البقرة : ٢٥٦

والظروف تحريرا لهذه العلاقة من أوجه الاكراه والجبر والقسر، فأشار بذلك إلى أن علاقة الانسان بربه تبقى دائما قائمة على الحب والرضا المتبادل: « رضي الله عنهم ورضوا عنه.»[1]، « راضية مرضية.»[2]

وأن الانسان له أن ينكص إن أراد أو أن ينكث العهد:» إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم.فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما.»[3]

ويقول تعالى في العلاقة الزوجية:» يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا «[4].

فقد نهت الآيات عن إعضال النساء المتمثل في مضارتهن وإساءة معاشرتهن ترغيبا لهن في طلب الطلاق ولو بالافتداء بمهورهن أو ببذل الخلع للزوج وكل ذلك من سوء الخلق. أما قوله تعالى:» فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا «؛ فهذا إشارة إلى حال الانسان مع نفسه؛ حيث أن الواحد منا (رجلا أو امرأة) يقف من زوجه موقفه من نفسه. فإذا أحب نفسه أحب زوجه، وإذا كره نفسه كره زوجه.

وإذا اضطرب بين الحب والكره لنفسه، كان كذلك مع زوجه. وإذا احتقر نفسه فعل ذلك بزوجه أيضا. والخلاصة، إن العلاقة بالزوج مظهر للعلاقة بالنفس تكشف عن خفاياها وتظهر بواطنها وأسرارها وصحتها وأسقامها. وقد نبه الله هنا إلى أن الانسان قد يرى من زوجه ما يكره مثل أن تكون رعناء أو تظهر بخلق قبيح، أوغير ذلك مما يكرهه الانسان من نفسه، فحينئذ قد يسارع إلى طلب الفراق ظنا منه أن في ذلك السلامة، بينما الأولى الصبر على ما رأى والاحتيال في إزالته؛ فقد يغير الله عندئذ الزوج من حال إلى حال.

---

(١) سورة البينة : ٨

(٢) سورة البينة : ٨

(٣) سورة الفتح : ١٠

(٤) سورة النساء : ١٩

ثم إن الانسان لا يسلم من داعية الهوى، فقد يكره الأمر في يوم لعلة وحال هو فيه، لكن لا تلبث الأيام أن تثبت له خطأ صنيعه حيث يناله الخير العميم مما كرهه ورفضه.فكم من إنسان ابتلي وأصيب بما ظنه شرا كأن يصيبه مرض مثلا، فصاح وناح ثم جاءته الأقدار بما لم يكن يتوقع من الخير جراء ما أصيب به.

إن الانسان هلوع:»إن الانسان خلق هلوعا.إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا.إلا المصلين.»[1]

ولذلك فكثيرا ما ضيع الانسان نفسه لأنه رأى من أسقامها ومن عوراتها ما لم يحتمل، واختلفت عليه صورتها حيث أحب لها العلى والرفعة فوجدها في الدناءة والضلال. حينئذ، قد يسعى إلى فراقها ظنا منه أنه بذلك يسلك أحسن السبل، ولكن الحقيقة أنه بذلك يضيع واجبه في إصلاحها وتطهيرها. فالله لم يعط للإنسان ألف نفس، وإنما هي نفس واحدة أمارة أو لوامة أو مطمئنة بحسب من يتولاها ويرشدها.

إن مرض النفس ونقائصها، قد تكون سببا في توبة نصوح ترفع الانسان إلى أعلى عليين؛ والله تعالى يهدي عبده بما شاء وكيف يشاء.وكذا الزوجة، قد تبدو ذات نقائص، إلا أنها قد تكون ذات خير كبير على نقائصها أو خير أكبر بعد تجاوز هذه النقائص، والله أعلم.

ثم إن قوله تعالى:» وأخذن منكم ميثاقا غليظا»[2]، فيه إثبات لمسألة الميثاق وهو العهد،وتعظيم له، وهو بذلك يشير إلى ضرورة حفظ العهد ومراعاته، والعمل بما نص عليه. إن احترام عهد الزوجية، دليل على مدى احترام الانسان لعهده مع ربه سواء كإنسان بالإطلاق لما شهد وعاهد على التوحيد في فجر وجوده؛ أوكمؤمن لما عاهد على بيع نفسه وماله لله مقابل الجنة وهو إذ ذاك في أوج وجوده.

نخلص من كل ذلك إلى أن العلاقة الزوجية المكرمة،هي صورة لعلاقة العبودية المقدسة، وإلى أن الإخلاص وعدم الخيانة فيها، هو إعلان حسي ظاهرعلى

(١) سورة المعارج : ١٩ _ ٢٢
(٢) سورة النساء : ٢١

الإخلاص لله تعالى وعدم الشرك به. ولذلك أكد الله تعالى على أن الفلاح سمة المؤمنين الذين من أوكد صفاتهم الحفظ لفروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم: « قد أفلح المؤمنون.الذين هم في صلاتهم خاشعون.والذين هم عن اللغو معرضون.والذين هم للزكاة فاعلون.والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين.فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون.»[1]

فإذا ثبت أن حفظ الايمان يشترط حفظ الفرج،علمنا أن الزنى تضييع لهذا الحفظ؛ يزول باقترافه نور الإنسان، وهو على التحقيق نور الايمان. فلا نور إلا نور الايمان، وهو حضور الله تعالى في قلب الإنسان. فإذا ضيع الإنسان نوره، ضيع أمانه وأصبحت نفسه مسكنا للشيطان يفعل فيها ما يريد. هكذا ظهر الشيطان في امرأة العزيز فأغواها وأضلها تماما حيث أنساها فضل زوجها عليهارغم أنه وكما يظهر من سياق القصة، زوج متزن كريم. وأنساها حرمة الزواج، وأنساها واجب صيانة من في بيتها وهو يوسف عليه السلام،لا محاولة إفساده وإغوائه. وأنساها واجب قول الحق، فألصقت بيوسف تهمة الاعتداء جزافا. ثم أنساها فضيلة العفة والاحتشام، فأعلنت على ملإ نسوة المدينة أنها ماتزال تطلب يوسف وتراوده؛ وأنها مصرة على نيل الوطر سواء عبر الرضا أو الإكراه، فخرجت عن الحدود تماما وتألهت فتاهت.

وليست امرأة العزيز كما يظهر من سياق القصة، من فاقدات الفهم، قليلات الاعتناء بالكرامة، ومن فاقدات العقل بإطلاق؛ دليل ذلك أنها لم ترض أن يستهان بها من قبل نسوة المدينة، فدبرت وكادت لهن كيدا يظهر النباهة والفهم. كما أنها وبعد زوال السكرة والأوبة إلى الرشد، لم تدخر جهدا في تبرئة يوسف واتهام نفسها التي شهدت عليها شهادة أحسب أن الله تعالى يرفعها بها درجات عندما قالت:»وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إنه غفوررحيم»[2].

وقد قالت قبل ذلك بين يدي الملك:» قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا

(١) سورة المؤمنون : ١ _ ٧
(٢) سورة يوسف : ٥٣

راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين.ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين».[1]فامرأة العزيز، إنسان راشد قوي البنية النفسية،عزيز النفس، طيب المعدن،لانشك في ذلك؛ غير أنها لما ضيعت الحد الأكبر في العلاقة الزوجية وهو حد الإخلاص، واندفعت نحو الزنى؛ نسيت كل أوصافها، وخرجت عن كل حقائقها، وضلت ضلالا مبينا. فكذلك ينسى الإنسان نفسه نسيانا تاما عندما يدخل طريق الزنى. وتبدأ الظلمات في التكاثر حالما يبدأ الإنسان في مقاربة هذا الحد الخطير. ولذلك قال فيه الله تعالى:»ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا.»[2] وقال في سورة النور: « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين»[3].

فنبه الله تعالى في آية الإسراء إلى أن الزنى سبيل أي طريق واتجاه متميز يهدي إلى الظلمات والانحطاط،، وأنه ضد مسار الترقي وسدّ دون الله تعالى ودون الاسراء نحو النور والخير والسلام. بمجرد أن يقارب الانسان طريق الزنى، يقترب منه الخطر العظيم؛ وفي لحظة قد يصبح صريع الاستقطاب الشيطاني بالكامل.

ولذلك، فليس أمام الانسان الذي يريد النجاة إلا أن يحتاط فلا يقارب هذا الحد أصلا.فقوله تعالى:» ولا تقربوا الزنى»، فيه تنبيه شديد إلى خطورة هذا الفعل الفاحش.

إن حالة إعطاء النفس بالكامل في المجال المخلوقي وفوق الأرض بالذات، حالة غيبة خطيرة تقتضي حفظا شديدا. ولذلك جاء الشرع بالحفظ والحد الواضح في هذه المسألة ورفض أي تعامل رحيم مع الزانيين:» الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين».[4] ومعلوم أن عقوبة الزنى تصل إلى حد رجم الزانية والزاني المحصنين؛ فهي بهذا أخطر العقوبات وأقساها على الإطلاق.

---

(١)سورة يوسف: ٥١ _ ٥٢
(٢) سورة الإسراء : ٣٢
(٣) سورة النور : ٣
(٤) سورة النور : ٢

إن التهاون بتطبيق حد الزنى، هو تهاون بالايمان نفسه. فلا يأمن على نفسه في حالة الزنى مخلوق من أي شيء كان قد يحصل له مما نعلم ولا نعلم. فأسوأ ما يمكن تصوره يمكن أن يقع للزاني وهو متلبس بالزنى. ليس إلا الله تعالى يحمي عبده في حالة إعطاء نفسه بالكامل واستهلاك مخلوق آخر لهذه النفس بالالتذاذ والاستمتاع. فإذا ما أتى الانسان شهوته عبر طريق مشروع، حماه الله تعالى وستره.

ولذلك شدد الله تعالى على ستر العورات وستر هذه الأعمال تجنيبا للانسان غائلة الأذى الذي يقع بسبب فضحها وإظهارها. فما أظهر قوم عوراتهم إلا فضحهم الله وما قاربوا الزنى إلا وقعوا فيه، وما وقعوا فيه إلا اكتنفتهم الظلمات بعضها فوق بعض؛ فلا فلاح لأمة أهلها زناة أو من مقاربي الزنى.

حرم الله تعالى على المؤمن نكاح الزانية التي جعلها في محل المشركة ومقامها، وحرم على المؤمنة أن ينكحها زان أو مشرك، لأن فعل الزنى هو في الاعتبار وكما أسلفنا، نفس فعل الشرك إذ هو تأويله على المستوى الحسي.

إن المستوى الحسي للشريعة تأويل للمستوى الروحي لها، وعبادات الظاهر وحدوده رموز لعبادات الروح وحدوده. فمأأمر الجسد بغير ما أُمر به الروح بل أعطي كل علم الروح من خلال علم الجسد واعتباراته.

فهذا من صميم علم التأويل على مستوى ذات الانسان وحقيقته. وذلك معنى الآيات البينات. فالآيات هي الصور الجامعة للاعتبارات، أوهي الحقائق الكاشفة عن أوجه الاشتراك والكناية بين عالم الظاهر وعالم الباطن. فكل آية في الغالب هي مشهد ظاهر يكشف عن حقيقة باطنة.والتأويل هو الربط بين الآية الظاهرة البينة والحقيقة الباطنة التي تشير إليها.

لم يكن يوسف عليه السلام من الضالين الغافلين. كان يعلم بما آتاه الله تعالى الحكم والعلم، حقيقة فعل الزنى وما يؤول إليه من امتصاص نور الانسان. وقد كان يوسف على نور عظيم؛ ولذلك تهافتت عليه النسوة تطلبن هذا النور بالذات الذي افتقدنه لما ضيعن أنفسهن بتضييع عفتهن وإخلاصهن لأزواجهن. فعلمنا أنهن إن لم تكنّ أنفسا فاسدة، فهن أنفس حائرة تبحث عن النور بعد أن

ضيعته. إن النور يبقى دائما مركز الاستقطاب، والانسان في أعماقه ،مثل الحشرة طالبة النور يتهالك على ما يراه نورا بطبيعته ؛ بل قد يقع في النار طلبا للنور، ونحن نرى ذلك في عديد الحشرات، يفقدها حب النور الوعي بالمخاطر التي قد تنجم عن مقاربة النار، وشتان ما بين النور والنار.

ويوسف عليه السلام،يعلم بما علمه ربه، أنه إن كان مطلوبا وهو ممتلىء نورا؛ فإنه لو قارف الزنى سيفقد نوره وسيصبح هو الطالب الملهوف المتهالك على النسوة اللاتي أخذن نوره. تلك هي في الحقيقة لعبة الشيطان من عهد آدم إلى يوم يبعثون، يعد الانسان بالنور: «إلا أن تكونا ملكين»[1] .

(والملائكة كائنات نورانية). وما وعد الشيطان آدم وزوجه بمقام الملائكة إلا لعلمه اليقين أن الانسان بطبعه يطلب النور ويحبه ويتهالك عليه. إن الشجرة التي أوقعهما فيها هي شجرة الحرام، وثمرتها الزنى. ولذلك فمنذ أظهر الله تعالى ما ووري من سوءات الانسان بسبب جنايته على نفسه واتباع الشيطان، لم يعد لهذا المخلوق والذي اكتسب بسوء عمله فرجا،من سبيل إلى النور والنجاة إلا بحفظ هذا الفرج وستره باللباس، ولباس التقوى على وجه الخصوص. ولذلك نرجح والله أعلم، أن آدم وزوجه لم يكونا يعلمان شيئا عن وجود الفرج فيهما حيث وارى عنهما الله تعالى هذه السوأة الممكنة،فلما ضيعا العهد ظهرت السوأة،حيث قدر الله تعالى أن تظهر سوءات الانسان كلها إذا ضيع مع ربه عهده.

ولو فقد يوسف عليه السلام نوره لأظلم باطنه وضيع ما علّمه ربه وما أهداه إياه من علم التأويل. فالتأويل علم يقتضي الاستنارة الكاملة لأنه الوعي، بل رؤية الحقيقة (الباطنة) في الآية (الظاهرة)، واستخراج المعنى من الحديث. ولا يمكن لغير المستنير أن يمارس علم التأويل. كان حرص يوسف عليه السلام على منع هذا التزاوج اللامشروع، لأنه تزاوج استهلاكي وليس تزاوجا تكامليا. فالزواج المشروع تكامل بين الزوجين بإذن الله، والزنى علاقة استهلاكية يسعى أحد الزانيين أو كلاهما لاستهلاك شيء يراه في الآخر وأخذه؛ إنها اغتصاب غير مشروع لنفس الآخر وبيته وسرقة لما يجب أن لا يسرق، وهي نفس الإنسان.

(١) سورة الأعراف : ٢٠

وفي عمق ممارسة الزنى، لابد للإنسان أن يتعلم من الشيطان أن نفس الانسان قابلة للبيع.فإذا ما شرب الانسان هذه الكأس، حرر صك عبوديته للشيطان وذريته من الإنس والجن أجمعين.

إذا مارس الانسان الزنى تأنث بالكامل،أي أصبح سلبيا سلبية كاملة مطلقة.فعبر حركة الزنى يوجد فاعل واحد هو الشيطان ومنفعل واحد هو الانسان ذكرا كان أو أنثى.ولذلك فالانسان الذي يتصور أنه عبر عملية الزنى يغتصب شيئا مفقودا، إنما يخدعه الشيطان ليقوم باغتصابه بالكامل. لقد اغتصب الشيطان نفس إمرأة العزيز لما أراها النور في الخارج، وما هو في الحقيقة كذلك، بل نور الانسان في ذاته وهو لا يشعر.

فلما خرجت طالبة إياه (النور) ،استولى الشيطان على المحل القفر(النفس)، وحال بينها وبين صاحبها. فهل حققت إمرأة العزيز بخروجها هذا مطلبها؟ لا، فهي وقد خرجت تطلب النور والسعادة، لم تربح شيئا منهما ولم تنل إلا همّا وفضيحة شهدت بهما على نفسها في موقف الاعتراف أمام الملك. وكذا ستفعل كل نفس إنسانية أمام الله تعالى يوم القيامة؛حيث ستشهد تلك النفوس الضالة التائهة،أنها طلبت السعادة حيث الشقاء، وقارنت الشيطان حيث تصورت أنها تحيا في النور.

ولو مارس يوسف عليه السلام الزنى (نزهه الله وأعزه)، متصورا أنه بذلك ينال الحظوة والسلطة والخير العميم، لكان في ممارسته تلك عين سقوطه وهوانه؛ حيث ستفرغ ذاته بعد الامتلاء، وسيسعى منذئذ إلى ملء هذه الذات الفارغة التي لا تشبع.

لو أطاع امرأة العزيز لأصبح أنموذجا لمن يعطي بلا ثمن ويترك نفسه عرضة للسرقة والاغتصاب. ومهما تصور حينئذ أنه أخذ شيئا من إمرأة العزيز، فسوف يبقى شعوره الأساسي أنه كائن مستهلك مستفرغ، مستقطب تحت سلطة قوة أنثوية لا تملك أن تعطي بل كل فعلها أن تأخذ فقط. ولذلك قال الله تعالى في سورة النساء:» إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا.».[1]

(١) سورة النساء : ١١٧

فعلمنا أن الشيطان لعنه الله ،قوة أنثوية استهلاكية،امتصاصية للانسان ذكرا كان أم أنثى،وأنه لا يملك شيئا أصلا لكي يعطيه.وبذلك، فانتماء الشيطان إلى العدم لا إلى الوجود، بل إنه عين العدم، وهو إنما يتطفل على الوجود من خلال هذا المجلى الإمكاني الانساني الذي يشكل فرجة (فرجا)،في الوجود يقبل من خلالها التأثر بأوهام العدم. فالوجود بناء مكتمل وبيت حجر،اللهم إلا هذا المجلى الانساني الذي هو على خطر عظيم أن يأكله العدم ويفنيه فيذهب أدراج الرياح.

وكذا جسد الانسان، ذو فروج هي طرق مثلى لولوج الشيطان إلى الذات الانسانية ودخوله إلى النفس لامتلاكها واغتصابها. فهذه الفروج الانسانية هي علامة الامكان الانساني. فإن حجّرها الإنسان وحفظها بالإخلاص والإحصان والعفة، أغلق باب الإمكان هذا والذي هو ليس سوى باب العدم.

لأن الانسان أصلا من الوجود، أنعم الله عليه بالوجود بدءا وبدون أي مقابل منّا منه تعالى على الخلق المبتلى. وحينئذ، إذا بقي على حاله انتمى إلى الوجود سعيدا به، إذ هو على التحقيق جنته وخلده. وإن تلاعب بهذه الأقفال، وادعى الحق لنفسه في الفتح والإغلاق، وقام على نفسه حفيظا، فلا يلبث أول شيطان أن يعبث به ويمزقه شر ممزق. ولذلك كان دعاء الصالحين على كشف:» اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأهلك». إذا حافظ الانسان على عهده وأحصن نفسه، وأغلق بابه عليه مؤمنا بربه، فإنه حينئذ في جنته لا يخشى بأسا ولا يجوع ولا يضحى.

وتبدأ المأساة عندما يتحرك الانسان طالبا الوجود في العدم والماء في سراب الصحراء. فإذا سعى لتغيير ما بنفسه وذلك بطلب نفس سوى نفسه وذات سوى ذاته، حينئذ يرى» النور» في الخارج فيقفز إليه.حينئذ، لقد أدى الشيطان دوره فأخرجه من الجنة.والويل كل الويل لمن خرج من الجنة.

لماذا سمى الله الفرج في الانسان سوأة؟

إن الفرج سوأة فعلا،لأنه فتحة في كيان الانسان و ثغرة يدخل منها العدم. فالانسان لما ووريت سوأته، كان منيعا بحفظ الله تعالى. ولكن الشيطان العليم

بسر هذا المخلوق، كان يعلم نقطة ضعف الانسان. فسعى إلى أن يفتح ثغرة في كيانه المغلق وهو ما انغلق بذاته بل بحفظ الله.فكان سعي الشيطان أبدا إلى إخراج الانسان من دائرة حفظ الله إلى ربوبية «حفظ» نفسه بنفسه؛ وهو ادعاء يعلم الشيطان يقينا أن الانسان لا يقدر عليه . فحالما يتولى الانسان نفسه ويقوم عليها ربا،تبدأ سلسلة المآسي والمصائب والفواجع والكوارث، ويتعاور الانسان شياطين الانس والجن، ويرى بأم عينه نفسه وهو عاجز عن استردادها، وهي في بحر خضم مثل النملة في المحيط.

فالفرج في الانسان باب العدم إليه،وهو الشيطان.ولذلك كان أكبر شهوة الانسان شهوة الفرج،وكان أكبر فناء الانسان في النكاح؛ وهو فناء حسي جسدي كثيف. فإذا علمنا كشفا وعلما،أن قوة الوجود في الانغلاق حيث أنه علامة التمام، علمنا أن الفرج في الانسان صدع خطير ألغى الحماية الممنوحة من قبل الرب بدءا، لتصبح مسألة الحماية مسألة قرار إنساني،أي مسألة طلب إنساني ورغبة في الانتماء من جديد إلى الوجود ورفض العدم.

إن موقع الفرج وسط جسد الانسان بالضبط،يدل على أن قلب المملكة(الروح)،أصبح مهددا دائما بالاغتصاب والاحتلال.وأن الانسان حكم عليه بأن يصبح مخلوقا محاربا ومقاتلا لكي يحقق السلام.فلم يعد السلام أمرا مسلما،بل أصبح وعدا فقط يأتي بعد الحفظ والمنع.فإن حفظ الانسان فرجه،وأغلق عليه بابه،عاد إليه سلام نفسه وآب إلى جنته.وإن ترك فرجه مفتوحا، أتاه الشيطان وامتلكه وقارنه ولم يملك له دفعا.

3 - النفس الطالبة والنفس المطلوبة :

السلطة والاستقطاب:

الجنة والعذاب

«وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون».[1]

« قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها...الآية».[2]

«وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين».[3]

«قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين.قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين. فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم.»(4)[4]

« قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إنه غفور رحيم.

وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين.قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم.وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين. ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون.»[5]

جاء في لسان العرب :» الجوهري وغيره: والإرادة المشيئة، وأصله الواو،

(١) سورة يوسف : ٢٣
(٢) سورة يوسف : ٢٦
(٣) سورة يوسف: ٣٠
(٤) سورة يوسف: ٣٢=٣٤
(٥) سورة يوسف :٥١=٥٧

كقولك راوده أي أراده على أن يفعل كذا، إلا أن الواو سكنت فنقلت حركتها إلى ما قبلها فانقلبت في الماضي ألفا وفي المستقبل ياء، وسقطت في المصدر لمجاورتها الألف الساكنة وعوض منها الهاء في آخره.

قال الليث: وتقول راود فلان جاريته عن نفسها وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل واحد من صاحبه الوطء والجماع؛ ومنه قوله تعالى:تراود فتاها عن نفسه، فجعل الفعل لها.وراودته على كذا مراودة وروادا أي أردته. وفي حديث أبي هريرة:حيث يراود عمه أباطالب على الإسلام أي يراجعه ويراده، ومنه حديث الإسراء: قال له موسى صلى الله عليهما وسلم :قد والله راودت بني اسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه. وراودته عن الأمر وعليه: داريته.»[1]

راودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه، وأرادته لنفسها. وقد طلبت بذلك ومن خلال هذه المراودة، أهم مقوم لذاته وهو نفسه، مناط اعتباره ومجلى كيانه وموئل حقيقته وهوية ذاته ومنتجع روحه؛ ولم تطلب مالا ولا سواه. فهي الغنية عن المال وغيره، بل لعلها لو وافقها على ما طلبت، أن تعطيه من المال والخيرات ما لا يملك وهو الغلام الخادم في بيت سيده.

هناك من ناحية امرأة العزيز التي تملك كل شيء :(المال، البيت ،القوة... الخ) ،ولكنها لم تملك نفسها أمام فتاها، حيث نفرت إليه تراوده عن نفسه، وذهلت عن استقلالها، فلم تر لها سعادة إلا به. وهناك من ناحية ثانية يوسف عليه السلام الذي لا يملك شيئا إلا نفسه. وهكذا يتلخص الموقف في التقاء نفسين:نفس طالبة متلهفة على القران والجماع، هي نفس امرأة العزيز.ونفس ساكنة مستعصمة هي نفس يوسف عليه السلام؛ الذي استعصم وأبى رغم المراودة المتكررة من قبل امرأة العزيز ثم من قبل نسوة المدينة.

ولو تأملنا مسار المراودة لوجدناه قد تدرج في الكيفية فانطلق من امرأة العزيز إغراء واصطفاء:» وغلقت الأبواب وقالت هيت لك». فالخطاب هنا فيه لين وخضوع وتحبب وظهور بكل مظاهر الرغبة والتحبب والانكسار؛ ولا ريب أن امرأة العزيز قد بذلت في هذه المراودة الأولى كل ما تبذله الأنثى طالبة

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد ٣، مادة (رود)، ص ١٩١.

الوصال من نفسها، وتبرجت لذلك وأظهرت من زينتها وكشفت من عوراتها ما يغري فتاها. إن قولها :»هيت لك» يعني شيئا واحدا: «إني مهيأة لك».

غير أن الفتى الحكيم العليم بمنّ ربه وعطائه،رفض الإغراء وتذرع في أول احتجاجه بأنه ليس ممن يخون سيده الذي أكرم مثواه لأن في ذلك الظلم العظيم. فاستند إلى القاعدة العامة المتعارفة من الأخلاق والأدب والوفاء حماية لنفسه وتبصيرا للمرأة بما نسيته من الحقائق المعلومة.

غير أن المرأة المسلوبة سرعان ما انقلبت إلى وحش ضار بعد أن فشلت لعبة الخضوع والاستكانة والإغراء. فلما تملص منها الشاب الذي رأى برهان ربه بعد أن كاد يقع في يديها، اندفعت تمزق ثوبه بسعار معلنة بذلك أنها مصرة على نيل نفسه وعلى أخذها، وعلى أنه ليس له أن يستعصم ويمتنع مادامت قد طلبته وأرادته. وفي لحظة ينقطع المشهد ليدخل سيد البيت، فتبادر المرأة التي كانت منذ لحظة صريعة النفس الأمارة، عارية من كل لباس، مظهرة لعورة نفسها بالكامل، إلى ارتداء لباسها في لمح البصر لتظهر نفسها بمظهر البريىء العاقل الحكيم، وتظهر الفتى بمظهر الطائش المتهور الظالم :» واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم.»[1]

إن المرأة التي تعرت بالكامل ليوسف من حيث أظهرت له رغبتها كاملة في الجماع والوصال، ترفض أن تتعرى أمام مرآة الواقع التي قابلتها متمثلة في زوجها. فزوجها هو واقعها الذي نسيته. فلما ارتدت إليه أظهرت الستر والعفة. هنا ينكشف تناقض عجيب في المواقف لدى امرأة العزيز. فمن قمة التهتك إلى قمة التعفف بينت أنها كانت تلعب دورا ليس من ورائه في كلتا الحالتين إلا مصلحتها الشخصية. إن زوجها يمثل الواقع الحقيقي الذي تعيشه، أي الهيئة الاجتماعية بكل معانيها وقواعدها وأنظمتها. وهي لم تكن صادقة في حبها ليوسف وإلا لما راعت في حبه هيئة اجتماعية ولا قوة واقعية؛ بل إن المسألة ليست مسألة حب أصلا.إنها مسألة استيلاء وسيطرة وتوحش وتهالك على اللذة.

(١) سورة يوسف : ٢٥

كان حكم الهيئة الاجتماعية موضوعيا في المسألة، حيث شهد شاهد من أهلها وهو في الاعتبار شاهدالعقل والحق:» وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم. يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين»[1].

ذلك كان حكم شاهد الحق في هذه البلوى العجيبة؛ حيث اعتمد الدلائل الموضوعية (القميص)، واستفاد من المعاينة لهذا القميص أن الفتى أخذ وهو مدبر. فالمعلوم أنه إذا حاول الذكر اغتصاب الأنثى، فإنه أولى بأن يقدّ قميصها من قبل إذا امتنعت؛ وقد يحدث في حالات نادرة أن يناله هو تقطيع قميصه من جراء مقاومتها، ولكن القوة الذكرية في مثل هذه الحالة الشنيعة تكون في أعتى استبدادها وهياجها مقبلة على ضحيتها بكل كيانها الموبوء ورغباتها المجرمة. وما دامت الدعوى هنا قد قامت من الأنثى (امرأة العزيز)، فإن المحاكَم هو يوسف عليه السلام (الذكر).

فلما شوهد قميصه ظهر للحكيم أنه لا يحمل أي طابع للاستبداد والمطالبة والهجوم، بل يحمل علامات الإدبار والاستعصام والامتناع. هنا أيضا برىء القميص من التهمة وبرّأ لابسه كما برىء من قبل من دم ابن يعقوب.

إن الجسد يحمل دائما علامات النفس ويكشف عن حقائقها بالنسبة للحكيم المتبصر الذي لا يريد ظلما ولا إفسادا. فالشاهد من أهل هذه المرأة، وقد ظهرت حكمته ورجاحة عقله، اهتدى إلى ظلم قريبته ليوسف، ولم تمنعه القرابة من معرفة الحق ومن الشهادة به. فدل بذلك أن استعمال العقل والرضا بأحكامه، نور كاشف عن الحقيقة، لأن الحقيقة لا تخفى. ويوجد دائما في ظاهر الوجود إشارات إلى باطنه.

وهذا يصدق على كل الموجودات كآيات مشيرة إلى وجوده وتدبيره سبحانه وتعالى. كما يصدق على قميص يوسف وهو رمز ظاهره وجسده الذي دل على عفته وبراءته.أما قبل ذلك، فقد أوحى القميص ليعقوب عليه السلام بكذب

(١) سورة يوسف : ٢٦ _ ٢٩

أبنائه في ادعائهم أكل الذئب ليوسف عليه السلام:»وجاءوا أباهم عشاء يبكون. قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين.

وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»[1].فتبين من خلال رد يعقوب على أبنائه أنه تفطن إلى أنهم احتالوا ليوسف،وأن ما يقولونه وصف لا حق.ولذلك تذرع بالصبر حتى يأتي الحق،وهذا أيضا من دلائل الحكمة ومن مظاهر التأييد الالهي ليعقوب عليه السلام بالنور الباطن الهادي إلى الحق. لم ينس يعقوب عليه السلام ابنه يوسف، ولم تنطل عليه حيلة أبنائه رغم أنه لم يبالغ في استقصاء الحقيقة منهم بل ترك الأمر لله، وفي ذلك عميق الدلالة على النور الساطع والعلم الكبير الذي أيد به هذا النبي الكريم. ولذلك نجده بعد ذلك بسنوات، وعند حصول البلوى بسجن ابنه الآخر يسترجع أمر يوسف الذي لم ينسه حيث قال لأبنائه :

» قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم. وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم. قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين. قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون. يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون»[2].

إن القميص الذي أريد به أن يلعب لعبة الإخفاء والتعمية من قبل إخوة يوسف لحظة بغيهم، ومن قبل امرأة العزيز لحظة فجورها؛ يصر أن لا يلعب إلا لعبته هو الخاصة كآية كاشفة عن الباطن،أي عن الحقيقة. فكشف ليعقوب عن حياة ابنه، وكشف للشاهد من أهل امرأة العزيز عن كيد قريبته.

هذا القميص اليوسفي البريىء من الآفات،يرمز في كون الله تعالى إلى الجسد. فالكون بأجمعه وأفراده، جسد شاهد على وجود ربه وعلى تدبيره وحكمه وخلقه لكل شيء. والجسد في الانسان شاهد على وجود النفس، كاشف

(١) سورة يوسف : ١٦ _ ١٨

(٢) سورة يوسف :٨٣-٨٧

لذي العلم عن طبيعة هذه النفس وعن فجورها وتقواها شرط أن لا نأخذه بكلام وأن لا نقبل فيه وصفا، بل أن نراه كما هو في ذاته إما بحدس (حيث اشتم يعقوب عليه السلام رائحة الكذب من اشتمامه للقميص وما عليه من دم كذب).

أو بمنطق صحيح وترتيب مقدمات ونتائج ضمن نسق موضوعي للمعرفة (حيث بنى شاهد الحكم في قضية يوسف وامرة العزيز،حكمه على اعتبار القميص بمثابة الجسد المتحرك، فاكتشف كيفية حركة يوسف عليه السلام ونوعيتها:حركة تنصل واستعصام لاحركة هجوم وإقدام).

إن الجسد في حد ذاته آية من آيات الله ومرآة للنفس تكشف عن ثوراتها وعوراتها وعن أطماعها وعلاتها،وعن عفتها وفجورها،وإقدامها وإحجامها وهو كاشف موضوعي لا يخطىء؛وهو في حجته أقوى من الكلام.فامرأة العزيز لما تكلمت كذبت ؛ وإخوة يوسف كذلك. أما القميص فلم يكذب، فأعلن بذلك أنه يحتوي نظاما موضوعيا، أي أنه في حد ذاته يشكل نظاما موضوعيا للدلالة لا يمكن اختراقه واستعماله في غير ما وضع له واستعمل له.

واضح أن إخوة يوسف أرادوا استعمال القميص دليلا لهم ،وامرأة العزيز كذلك. ولو تفطنوا جميعا إلى علم المعنى،لأخفوا القميص عوض أن يظهروه، ولكن أنى لهم ذلك وهم في غمرة شهواتهم يعمهون.

يكشف الجسد من خلال هذا القميص اليوسفي عن كونه آية من آيات الله لا تكذب قارئها ومتدبرها ومتأملها. وبما هو آية، فإنه يحتاج إلى الفهم والتأويل لاكتشاف ما يعطي من دلالات وما يوحي به من إشارات. فالجسد نص عجيب زاخر بحديث النفس، ومرآة صادقة تظهر هذه النفس على الرغم من استخفائها ورفضها الخروج. فالنفس المجرمة ترفض أن تتعرى،ولكن الجسد يدفع بها إلى الظهور بأوصافها أحبت أم كرهت.

وهذا يدفعنا إلى مراجعة ما يتصوره الكثيرون من أن الانسان يملك السلطة على جسده لنقول لعل الأصح أن الجسد يملك السلطة على النفس وليست النفس التي تملك السلطة على الجسد. فالنفس تملك السلطة حقا ولكن على نفسها لا على جسدها. وهذا الأمر شبيه بصورة الوجه في المرآة.

فالمرآة لا تكشف إلا ما بدا من صورة الوجه.وصحيح أن صاحب الوجه يملك أن يضع عليه ما شاء من أقنعة،وحينئذ يظهر وجهه بصورة القناع الذي تقنع به.عندئذ، لا نقول إنه تحكم في صورته في المرآة، وإنما تجكم في صورة وجهه. أما المرآة،فتبقى دائما وفية لمبدئها: أن لا تكشف إلا ما بدا ولا تظهر إلا ما ظهر، ولا تفضح إلا ما تعرى.

إن مثل هذا الكشف يفتح لنا آفاقا عظمى وأملا كبيرا في بناء علم نفس الانسان عبر الإشارات والدلالات الموضوعية التي يقدمها الجسد. فلأول مرة نحن بإزاء النفس أمام خطاب ونص يكشفها دون أن تحكمه ويظهرها دون أن تستطيع تزويره. معلوم أن النفس وهي مدعية الربوبية والسلطة على المملكة الإنسانية، ليست كيانا سهلا بل هي مخلوق يسعى بين التأله والاستعباد ويطلب التسلط والاستعلاء تحقيقا للذة واستجلابا للمتع وملئا لفراغات لا يعلم إلا الله مداها.

ومن الاغترار ودلائل السذاجة القبول بحديث النفس عن نفسها إذا صاغته كلاما اللهم إلا ما ندر في لحظات شهادة صادقة لله تعالى أي للحق المقدس. فصناعة النفس ودأبها صياغة الكلام تصنع به أجسادا من الوهم وأثوابا من الهواء تغطي به عوراتها وسوء اتها إذا ما برزت لها :

« فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوء اتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.»[1]

وجاء في سورة طه:» فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى.فأكلا منها فبدت لهما سوء اتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى.»[2]

إن الكلام للإنسان هو بمثابة ورق الجنة لآدم أبينا وزوجه لما بدت لهما سوء اتهما فراعهما ما رأيا من الفرج في نفسيهما، وأزعجهما وأخافهما ما اكتشفا من

(١) سورة الأعراف : ٢٢ _ ٢٣
(٢) سورة طه : ١٢٠ _ ١٢٢

هشاشة بنيانهما؛ فطلبا الرجوع إلى الحفظ، ولكن الدائرة المغلقة كانت قد انحلت. وسواء أكان ذلك لدى البعض سر سعادة الانسان ولدى البعض الآخر سر مأساته وسببها، فمن الأكيد أن تأسيس نص الجسد وعلم الجسد ابتدأ من هذه اللحظة بالذات كعلم لازم للانسان في كدحه لإعادة الارتقاء والعودة إلى الجنة.

يرتبط الجسد ارتباطا كبيرا بالفرج؛حيث أن الفرج خاصة هو الفرجة الكاشفة عن نوعية بنيان الانسان وخصوصيته كذكر أو أنثى. والعلاقة وطيدة بين الفرج والفرجة. جاء في لسان العرب:» فرج: الفرج:الخلل بين الشيئين،والجمع فروج، لايكسر على غير ذلك. قال أبو ذؤيب يصف الثور:

فانصاع من فزع وسد فروجه غير ضوار وافيان وأجدع.

فروجه: ما بين قوائمه،سد فروجه أي ملأ قوائمه عدوا كأن العدو سد فروجه وملأها(....)

والفرجة والفرجة :كالفرج، وقيل:الفرجة،الخصاصة بين الشيئين (...) وفرج الجبل: فجه (...) والفرجة بالضم: فرجة الحائط وما أشبهه، يقال بينهما فرجة أي انفراج.

وفي حديث صلاة الجماعة: ولا تذروا فرجات الشيطان، جمع فرجة، وهو الخلل الذي يكون بين المصلين في الصفوف، فأضافها إلى الشيطان تفظيعا لشأنها، وحملا على الاحتراز منها(...)

والفرَجَة: الراحة من حزن أو مرض. وقيل:الفرَجة في الأمر، والفُرجة بالضم، في الجدار والباب، والمعنيان متقاربان(...)

والفرج: الثغر المخوف، وهو موضع المخافة.. وجمعه فروج، سمي فرجا لأنه غير مسدود (...)

والفرج: العورة. والفرج: اسم لجمع سوءات الرجال والنساء والفتيان وما حواليها، كله فرج، وكذلك من الدواب ونحوها من الخلق(...) والفرَج:انكشاف الكرب وذهاب الغم.» [1]

(١) لسان العرب ، المجلد الثاني، ص ص ٣٤١ _ ٣٤٣ ، مادة فرج

يتبين من هذه التعريفات للفرج والفُرجة والفرجة، التواصل بين مفاهيم: الانفتاح والانحلال والانكشاف والاطلاع والاستتار والسد ، والفتق والرتق..والخلل والإصلاح..والأمن والخوف.. وكلها عبارات تدل على أدوار الجسد وحقائقه الوجودية والمعرفية في نفس الوقت.

إن الجسد هو انحلال النفس وفرجتها رغما عنها حيث لا ترغب في ظهور سوأتها بل تريد الاستتار لأنه دليل المنعة والقوة. إلا أن ظهور الجسد حكم على هذه النفس بأن تمارس وجودها في مطلق شرط الوجود وأن تبرز عارية، أي بحقائقها الذاتية دون أي ستر إضافي. إنه نص النفس.

كان الستر الأول منّا من الله تعالى؛ غير أن النفس وبوسوسة خاصة من الشيطان، اعتمدت على ما توهمته قوة أي على الكلام لكي يمنعها من الهبوط بل لكي يزيدها تصاعدا وعلوا، وقد أغراها ما في قوة الوصف (الكلام)، من ايحاءات تجعل المستحيل ممكنا: « فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوء اتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين.فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين.»[1]

فالشجرة هي الكلام. وقوة الكلام ووهمه الأكبر أنه يجعل المستحيل ممكنا. والمستحيل الذي لا ينبغي حصوله في ملك الله تعالى أن يصبح الإنسان ملاكا. فالهويات لا تتغير لشيء، تنزه الله عن الشريك في الخلق وعن أهواء الخلق.

غير أن الكلام جعل ذلك أمرا واردا، وهو وارد بالفعل ولكن ككلام فقط، أما كفعل فمستحيل. وهذا ما نسيه آدم وزوجه في تلك اللحظة الحرجة من الابتلاء. فلما استولى سحر الكلام على آدم وزوجه، انغلق باب الستر الالهي والحفظ الرباني وكان لابد للحقيقة أن تبرز عارية. كان لابد لآدم وزوجه أن يريا جسديهما أي نفسيهما حتى يزول عنهما وهم أنهما ملكان.

(١) سورة الأعراف : ٢٠ _ ٢٢

فلما رأيا جسديهما لم يريا شيئا من صفات الملائكة، بل وجدا جسدا ذا فروج، حينئذ علما علم يقين أنهما ظلما نفسيهما وأنهما أصبحا على خطر عظيم.

كان السر معلوما من قبل ثلاثة على الأقل؛ الأول هو الله تعالى، ثم الملائكة والشيطان. هؤلاء يرون نفس الإنسان بدون وسائط ،ويشهدون فجورها وتقواها مباشرة ولا يحتاجون منها إلى كلام تعبر به عن نفسها أي عن حقيقتها.

أما الله تعالى فستر وأمر ونهى. وأما الملائكة فسجدوا خاضعين لله تعالى ولم يستكبروا على ما رأوا فعصمتهم طاعة الله تعالى من احتقار المخلوق ذي الفرج. وأما الشيطان فنظر إلى المخلوق في ذاته فزلّ.

لم يخطىء الشيطان في تقدير مدى قوة الانسان إن كانت له قوة ولا في معرفة حقيقته. فمخلوق ذو فرج هو كيان قابل للاحتلال والاستلاب، والاستيلاء عليه أمر هين ميسور، لاشك في ذلك.وإنما كان خطأ إبليس في عصيانه أمر الله تعالى. فلما نظر إلى المخلوق نسي قوة الخالق، ونسي أنه على كل شيء قدير. وهذا ما يجب أن لا ينساه مخلوق وإلا كفر وأشرك.

فالكفر : النظر إلى الخلق بدون حق،والتوحيد:النظر إلى الحق تعالى أولا وآخرا.

الفصل السادس
وشاهد و مشهود

نخلص إلى تأكيد الله تعالى على مسؤولية الإنسان على نفسه مسؤولية مطلقة، وإلى أن القرآن الكريم إذا كان قد كشف بوضوح عن خفايا النفس الإنسانية في كل أطوارها وتقلباتها واهتم بها أيما اهتمام فلأنها أرض التجربة وميدان الاختبار وبضاعة السوق موضوع البيع والشراء.

وإذ ا تأملنا الخطاب القرآني بشأن موقف الإنسان من نفسه، نجده يركز على موقفين كبيرين ترجع بقية المواقف إلى واحد منهما بحسب اختيار الإنسان ومسلكه. وهذان الموقفان المتناقضان هما موقف الشهادة على النفس وموقف ظلم النفس

1 - الشهادة على النفس

يؤكد القرآن الكريم أن أول موقف للإنسان من نفسه كان موقف شهادة عليها أقرت بمقتضاه بالتوحيد والايمان بالله الواحد بدون لبس ولا ادعاء ولا اعتذار:»وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أوتقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون.وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون «[1].

قبل وجود النفس كان الانسان حاضرا شاهدا واعيا قادرا على الإدراك وعلى المعرفة، وعليه فالأرجح أنه روح الله الذي قلنا إنه ليس سوى العقل الإنسانى المستنير بالعقل الالهي.

هذا الإنسان(العقل)، الذي لم يدخل التجربة بعد، والمتمثلة في تزاوج النفس والعقل، شهد على نفسه بأن الله ربه وقال بلى إجابة عن سؤال ربه « ألست بربكم «، وألغى الاعتذار الذي علم الله أن النفس ستقود إليه العقل لاحقا إذا غلبته.

وهذا الاعتذار عن التوحيد والايمان يكون إما بادعاء الغفلة عن لب المهمة الانسانية (ممارسة العبادة والتوحيد)، أو بالاعتذار بشرك الآباء وفسادهم والتعلل بالتبعية للأهل والآباء.

وبهذه الشهادة الأولى، أسس الله تعالى قوامة العقل على النفس، وألزمه بسياستها وقيادتها وحرم عليه الاعتذار والتعلل، وأكد له أن مهمته الأساسية هي الحفاظ على التوحيد (العبودية لله)، في كل الأوقات وكل الأحوال وضمن كل الأسباب.

إن كلمة بلى هذه هي كلمة شفرية تأسيسية للعقل الإنساني الفطري أي الأصلي، وهي موجودة في كل إنسان ولا يراها إلا صاحب العقل الالهي المؤمن الذي استطاع أن يتذكر هذا العهد الأول رغم فاصل التجربة ولا أقول فاصل الزمن .

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ _ ١٧٤

هذه الشهادة الأولى التي أقر بها العقل الإنساني وهو في راحة وجوده واستقرار كيانه غير خاضع لشيء إلا لله الخالق، هي ما يطالب الله تعالى به العبد بعد مزاوجته للنفس أي في لحظة التجربة الأرضية.

إن الإنسان فوق الأرض عقل ونفس، فإذا استحكم العقل فإنه يظهر بقوته وسره وهو التوحيد الخالص لله، وحينئذ تسلم له النفس، فيثبت له الإسلام ويثبت له الحفاظ على العهد الأول عهد الفطرة التي لا تبديل لها :» فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون.»[1]

فالله تعالى فطر الإنسان على التوحيد ولا شيء سواه، ولذلك فلما قال له ألست بربك قال بلى.

أما النفس، فقد سواها فألهمها فجورها وتقواها. يقول تعالى: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها «[2].

فالنفس حينئذ، وبخلاف العقل، قد سويت كما تسوى الأرض قبل البذار وألهمت القبول للفجور والتقوى. فلا يمكن أن تكون والحال هذه، موضع فطرة الله لأن فطرة الله هي دينه وهو التوحيد. فثبت أن فطرة الله تعالى اختص بها العقل واستخلف عليها، ولذلك قال تعالى مخاطبا العقل:» قد أفلح من زكاها.وقد خاب من دساها»[3]. فجعل التزكية والدّسّ عملا من أعمال العقل لا من أعمال النفس. وجعل النفس بمثابة المحل القابل لأحد الفعلين، فعل التزكية والإعزاز أو فعل السقوط والهوان. فدس النفس، إدخالها في الكفر والشرك والنفاق بالإكراه والقوة حتى تتطبع بأخلاق الكافرين والمنافقين، وتغيض منابع تقواها فتصبح كالأرض السبخة لا مطمع فيها لطامع ولا تعطي سوى الملح الأجاج.

وإذا قلنا إن العقل المستنير المؤمن هو الذي يزكي النفس، فتبرز استنارته في تنويره للنفس تماما كما تبرز أنوار الشمس في تنويرها للقمر، فإن العقل الشيطاني الفاسد الكافر،هوالذي يدس النفس في التراب ويعمل على اتضاعها

(١) _ سورة الروم : ٣٠
(٢) سورة الشمس : ٧ _ ١٠
(٣) ن م : ٩ _ ١٠

وهوانها.وهذا العقل نابع من عين الجنون، وما سمي عقلا إلا لقيامه بنفس دور العقل عامة من حصر النفس ضمن اتجاه معين وطبعها بطابع معين؛ وإلا فهو ليس بعقل أصلا بل هو نقيضه وعدوه.

إن الشهادة الأولى على النفس والتي تمت بإشهاد الله في مطلق الكونية، هي الفطرة السليمة التي سيسلك عليها المؤمن طيلة حياته. إن موقف المؤمن من نفسه طيلة مرحلة التزاوج الأرضي ينحصر في كلمة: الشهادة عليها.

يقول تعالى:» ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولوعلى أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا. وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا.»[1]

كان لابد لهذه الآية أن تكون في سورة النساء، لأنها تتعلق أساسا بالموقف من النفس والموقف من الآخر الذي يرتبط عضويا بالموقف من النفس.لأن موقفنا من أنفسنا يحدد بالضرورة موقفنا من الآخر.

يدعو الله الذين آمنوا ويخصهم بالحديث في هذه الآية، لأنهم أصحاب العقل المؤمن القائم بخلافة الله تعالى في الأرض، فيحرضهم على القوامة بالقسط وهو العدل. والقوامة هي الإشراف والتدبير، وقد رأينا قوله تعالى:» الرجال قوامون على النساء...»[2]. فالقوامة تدبير العقل لما تحته بدءا بنفسه؛ ولذلك ربط الله تعالى هذه القوامة وهي عين مشروع الاستخلاف، بالشهادة لله. فاندمج الاستخلاف بالشهادة اندماجا لا فكاك له.وقد قرأت للشهيد المرحوم «محمد باقر الصدر» رسالة عنوانها «خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء»

، تحدث فيها عن هذا الاندماج اللازم، وأن خط الخلافة مهدد دائما بالانحراف عن مساره وأن خط الشهادة هو الذي يقومه ويعدله. وهذا من دقيق الكلام ومن عميق فهم شهيد الأمة الأستاذ الصدر في كتاب الله تعالى.

يسعى العقل بطبعه إلى القوامة والإشراف والتدبير فتلك طبيعته، وما سمي عقلا إلا لأنه يختص بالتحديد والتنظيم والتوجيه أي بعقل ما سواه. وكمال

(١) سورة النساء : ١٣٥
(٢) ن م : ٣٤

التعقل للشيء مهما كان، أن نراه كما هو إذا كنا في موقف تعرّف، أو أن نحكم عليه بالحق إذا كنا في موقف حكم. ولذلك قال الله تعالى :

» كونوا قوامين بالقسط». وإذا كان الاتفاق سائدا بين الناس حول فضيلة العدل والقسط في القوامة؛ فإن الاختلاف بينهم ينشأ دائما حول حقيقة العدل في ذاته أو حول كيفيات تطبيقه وحدود هذا التطبيق. وتجيب الآية الكريمة مزيلة للألباس :

»شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما...»

أن يقوم الإنسان بالقسط معناه أن يشهد لله أي للحق المطلق وللعدل المطلق في مطلق شرطه ومطلق معناه. وحينئذ إذا قام العقل ليحكم وليدبر، فلا بد أن يعترضه الحد والقسر. والحد الأول الذي يعترضه هو «نفسه». ذلك هو التحدي الأول للعقل فإن طبق مبدأ القوامة بالقسط شاهدا لله لا لشيء سواه على نفسه، جعل الله بذلك واسطة بينه وبين نفسه، فلم يرها إلا بنور الله. فحينئذ تستنير هذه النفس ولا تستعصي عليه لأنه مؤيد ببرهان الله تعالى.

تلك شهادة أولى، وهي تحد أول لابد من اجتيازه بنجاح تحقيقا لكمال العقل كما يعلمنا القرآن الكريم ويهدينا.

إن العقل بناء يبنى وميزان يشيّد وذلك عبر الشهادة. فالشهادة بكل مراتبها،هي سلّم الإنسان إلى كمال العقل وكمال الاستنارة. فإذا شهد الانسان على نفسه، تجاوز بذلك عقبة كأداء وعاصفة هوجاء تجعل ما بقي من الطريق ميسرا بإذن الله تعالى.وأغلب البشر لايتجاوزون هذه العقبة بل يبقون دونها، وذلك لتعطل عقيدة الجهاد في قلوبهم وأنفسهم.

أما بعد الشهادة على النفس فيأتي الوالدان والأقربون، وهم أيضا ليسوا مستثنين من مبدإ القوامة بالقسط والشهادة لله فيهم لا لهم. فإذا ما نظر الإنسان إلى نفسه من خلال مبدإ الشهادة، أي من خلال الاحتكام إلى حكم الله فيها؛ ثم نظر إلى الوالدين والأقارب، وكل بني جنسه أقارب، من منظور الشهادة لله،فحينئذ

تستنير سبيله ويدفع الله فيه فطرته، فتخرج سليمة صافية، فيمارس الحياة خليفة مستنيرا يحكم بالحق ويهدي إليه. ذلك هو المؤمن الذي جعل الله تعالى له نورا يمشي به في الناس، وأخرجه من الظلمات إلى النور وما ذلك إلا لنجاحه في مجاهدة نفسه، أي في تعقيم الرحم الثاني لها :

رحم الفجور الذي يخصّب بالهوى وما في حكمه من الميول:» فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا.» [1]

إذا اتبع العقل الهوى فقد هوى، لأن نفسه حينئذ تخصب رغما عنه بجراثيم الفجور والفساد، وتلد رغما عنه نبتا نكدا وشجر زقوم فاسد. ويستوي في الاستهانة بالاستخلاف من لوى أي حرّف معناه مع الاعتراف بمبدئه، ومن أعرض جملة فلم يعتن برسالة الاستخلاف ولم يكترث لها أصلا. إن تحريف الرسالة بالشرك والنفاق مساو تماما للكفر بها؛ ولذلك التقى هؤلاء الثلاثة: المشركون والكافرون والمنافقون في النار،وكان نصيب المنافقين الدرك الأسفل منها.

دور الإنسان المؤمن إذن مع نفسه أن يشهد عليها،وذلك معنى قيامه برسالة الاستخلاف؛ وفرق بين الشهادة على النفس والشهادة لها، فالشهادة عليها انفصال عنها بفاصل النور الالهي، فلا يراها إلا من خلال هذا النور،فيضمن قيامه بحق الله (ذكر الله باستحضار نوره)؛ ويضمن رؤية نفسه كما هي في نفس الوقت؛ فتحصل المنفعتان جميعا. وهذا الفاصل النوراني الالهي، وهو عين الله وشرعه وحكمه، يصل بقدر ما يفصل، بل لا يفصل إلا ليصل. ولكنه يصل العقل بالنفس وصلا نورانيا.

فليست غاية الله تعالى فصل العقل عن نفسه تعالى الله وتنزه، فما حكم بحرمة الزواج، وهو الذي خلق الذكر والأنثى وجعل الزوج سكينة لزوجه، ولكن غايته أن يتم التواصل بكيفية نورانية، أي بمودة ورحمة، فيكون من ذلك سكون الزوج إلى زوجه، ويكون التداخل والتزاوج المتين، القائم على الرضا والقبول والحب لا على الجاهلية والإكراه.

إذا شهد الإنسان على نفسه حَكَمَها. ولا يحكم النفس إلا عقل قوي مستنير،

(١) سورة النساء : ١٣٥

يملأ عليها أقطارها نورا وسكينة. ويستحيل أن تركن النفس وأن تطمئن إلى «عقل» يكرهها أو إلى عقل هو أضعف منها يمالئها على أهوائها ويداريها في نزواتها. فإذا حكم الإنسان نفسه، يكون قد حقق مهمة الاستخلاف التي من أجلها جاء :» إني جاعل في الأرض خليفة».[1]

فالخلافة هي الشهادة على النفس، وهذه الشهادة إن تعددت مستوياتها بدءا بالنفس لتمتد إلى الوالدين والأقربين أي إلى الآخرين، فإنها في العمق حركة واحدة وفعل واحد مضمونه أن على الإنسان أن لا يرى شيئا إلا بنور الله ولو كان نفسه.

فإذا سلّم أن الله تعالى هو مصدر النور،أخرجه سبحانه من الظلمات إلى النور وحماه من مهالك الطريق.

يشهد الإنسان على نفسه عبر الإسلام لله تعالى.فالإسلام والشهادة معنى واحد لاينفصل. ويستحيل أن يوجد إسلام حقيقي بدون شهادة لله تعالى مبرأة من الهوى والزيغ والميول. ولا يقدر الإنسان أن يشهد على نفسه إذا احتفظ بها وراعى مطالبها وجارى أهواءها، وإنما يشهد عليها إذا باعها لله تعالى ونفذ فيها حكمه تعالى بدون لف ولا دوران. ولذلك تولد عن العهد الأول الذي قلنا إنه العهد الفطري (وهو شهادة الإنسان على نفسه قبل ملابستها)،عهد ثان يتم فوق الأرض، وفي فترة التزاوج بين العقل والنفس.

ومقتضى هذا العهد الثاني بيع النفس لله وذلك باستعمالها في القتال في سبيل الله تعالى خاصة. يقول تعالى :» إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم».[2]. وعبر الالتزام بمقتضى هذا العهد الثاني تتم ولادة الإنسان. أي ظهور حقائق العهد الأول، عهد الشهادة لله في مطلق الوجود: « ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...»

---

(١) سورة البقرة : ٣٠

(٢) سورة التوبة : ١١١

إن الله تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم،وتخصيص المؤمنين بهذا البيع الرهيب الذي لا تباع فيه البضاعة فقط بل ومعها الدكان، الأمر الذي يشكّل بدون أدنى ريب مغامرة كاملة،وتجربة مشرعة على المطلق، مطلق الربح أو مطلق الخسارة؛ جاء تخصيص المؤمنين دون سواهم لأنهم الناس العقلاء الذين عقلوا أنفسهم، فحينئذ صح لهم التحكم فيها إذ لا يبيع الإنسان شيئا لا يملكه ولا يحكمه. إن المؤمنين هم أحرار البشر الذين يملكون القرار فيما يتصل بذواتهم ومصيرهم ودورهم وليس كل البشر يبلغون هذا المستوى من الحرية.

وبمقتضى هذا العهد، يحول العقل النفس من نفس أمارة تأمر وتنهى، ولا تأمر النفس إلا باتباع الهوى ولا تنهى إلا عن العمل والعزيمة، إلى نفس مقاتلة. وهو انقلاب كلي شامل وزلزال داخلي دونه زلازل الأرض التي نرى :» كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.» [1]

هو ذا عمل محض ليس فيه أي هوى ولا يعد بأية لذة، بل ليس فيه إلا الحزم والعزم والإقبال على المكاره، بل مواجهة أشد أعداء النفس وأثقلها ظلا على الإطلاق:العدم. إن القتال هو دخول النفس إلى ساحة الحرب بين الوجود والعدم لا كمتفرج بل كشاهد ومنتم إلى الوجود ومحارب للعدم. وساحة الحرب هذه لم تحددها النفس بل تحددت موضوعيا بفعل العقل. فالعقل هو موضوعية النفس، أو هو الذي يعطي للنفس الحدود الموضوعية للوجود.

والدليل على أن النفس لا تعمل ضمن سياق ذاتي ولا تخوض حربا بشروطها هي، أن القتال الذي كتب عليها هو كره لها، أي أنها تكرهه ولا تحبه ولو تركت لمحض شرطها لرفضته. وما أقبلت النفس المؤمنة على القتال إلا لأنه أمر الهي تقبلته بفعل الايمان وأقبلت عليه بمقتضى التقوى والخضوع لله يقينا منها وقد آمنت أن الله هو مصدر العلم وليست هي: «والله يعلم وأنتم لا تعلمون»[2]. إن القتال الذي يخوضه المؤمن يشكل عملية انخلاع كاملة تامة عن نفسه وما ترغب، بل عن ماله وما يكسب. إنه ظهور العقل على النفس ظهورا كليا يجبرها

(١) سورة البقرة : ٢١٦

(٢) سورة البقرة : ٢١٦

فيه على الموت طاهة لله. فإذا ما ثبت للعقل هذا الصنيع ولا يكون ذلك إلا في ساحة الوغى وفي معركة الوجود والعدم، جازى الله تعالى المؤمن عن حسن ظنه بربه أحسن الجزاء بأن يهبه حياة أبدية خالدة لا يمسه فيها العدم بحال:» ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون «[1].

هكذا يتدرج المؤمن في مسار الشهادة على النفس حتى يصل إلى القمة في لحظة تقديم هذه النفس قربانا لله. وفي تلك اللحظة، لابد أن تكون النفس قد بلغت كمال الإسلام لأنه لا إسلام أكثر من القبول بالموت. فالموت هو الاستسلام الكامل للكائن، والمؤمن يستسلم استسلاما كاملا عن طواعية، والكافر يستسلم استسلاما كاملا غصبا وجبرا يجبره الله تعالى، وذلك فرق ما بين الأحرار والعبيد. يقول تعالى معرّضا بالكافرين المنافقين: « الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون.»[2]

ليس الإنسان فوق الأرض سوى مشروع للموت، وليس له من حق إلا حق واحد: أن يختار ميتته، فإما أن يختار الشهادة وهي الإقبال على قدر الموت برضا ويقين، وذلك معنى الايمان بالقدر، وإما أن يختار الهروب من هذا القدر، وهو لعمري هروب النعامة من عدوها بأن تدفن رأسها في التراب: « قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون.»[3]

إن الشهادة في سبيل الله تعالى في ساحة الحرب بين الوجود والعدم، هي لحظة التطهر القصوى للنفس الإنسانية من كل التعاليم إلا من تعليم واحد أوحد هو تعليم الله تعالى. فإذا خضعت النفس للتعليم بالكامل وصبرت على حكم ربها، حينئذ تبرأ وحينئذ تطمئن، وحينئذ يولد الإنسان وترتفع قواعد البيت العتيق.

كانت صيحة يوسف عليه السلام :»رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه»،

(١) سورة آل عمران : ١٦٩

(٢) سورة آل عمران : ١٦٨ _ ١٦٩

(٣) سورة الجمعة : ٨

شهادة باهرة نصرت العقل وأحيت الإنسان وأقامت عرش الخلافة الإنسانية وانتصرت للنفس من حيث ظنت هذه أنها خذلتها. وتلك ولاشك حكمة الهية قضت بأن يكون الانتصار على النفس انتصارا لها، والشهادة عليها تطهيرا لها وتزكية.

وإذ تسلم النفس قيادها للحق وأمره قائلة على لسان اسماعيل عليه السلام في غمرة البلاء المبين: «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين»[1]. يكون الحق حينئذ قد هيأ الفداء وأعد مرسوم العفو بل والتزكية والمدح لنفس لم تدخر في سبيل طاعته وسعا:» فلما أسلما وتله للجبين. وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على ابراهيم. كذلك نجزي المحسنين .»[2]

(١) سورة الصافات : ١٠٢

(٢) ن م : ١٠٣ _ ١١٠

2- ظلم النفس :

أما المسار الثاني في علاقة الإنسان بنفسه فهو مسار الظلم لها. وهنا أيضا تدخل نوعية العلاقة بالله تعالى كدليل ومحك ومعيار. فإذا كانت الشهادة على النفس قمة الذكر لله وقمة الإسلام لله، فإن الظلم للنفس هو قمة النسيان لله. فبالإسلام لله تحقق النفس الشهادة، وبنسيان الله تحقق الظلم؛ والشهادة والنسيان حتى على مستوى اللغة، ضدان لا يلتقيان. يقول تعالى:»يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون»[1].

ما معنى أن يظلم الإنسان نفسه؟ لاريب أن الإجابة عن مثل هذا السؤال تستمد إلى حد كبير من التحليل السابق لمعنى أن يشهد الإنسان على نفسه. فأن يظلم الإنسان نفسه يعني عندنا، أن لا يشهد عليها بل لها. ذلك ما فعلته امرأة العزيز عندما ضبطت متلبسة بمراودة يوسف عليه السلام، فقد اندفعت بسرعة مدهشة لتؤلب زوجها على الشاب المظلوم مدعية أنه أراد بها سوءا، ولولا وجود الشاهد من أهلها الذي شهد بالحق لكانت التهمة لبست الفتى البريىء.

إن النفس مهما كانت من شرف المحتد وطيب الأصل لا تملك إذا تعرت إلا أن تسعى إلى الاستتار ولو بورق الجنة، ضاربة عرض الحائط بأي التزام بقول الحق والعمل به.

وإذا كانت قمة الشهادة على النفس تتم بترقيتها وتزكيتها حتى تبلغ درجة الشهادة وهي القبول بالقتال في سبيل الله كعمل أساسي هو صلب حركتها ومعنى وجودها، فإن ظلم النفس يعني دسها في تراب الأرض والإخلاد بها إلى الأرض وتركها تتمرغ في الرغام مثل سائر الحشرات التي توطأ بالأقدام دون أن يكترث لها أحد. يقول تعالى مفصلا الحديث عن ظالمي أنفسهم بعد أن تحدث عن المجاهدين:

« لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين

(١) سورة الحشر : ١٨ _ ١٩

درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما. درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما. إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض. قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا.»[1]

أكدت الآيات السابقة من سورة النساء على الوضع الأمثل للنفس والوضع الأسوإ لها. فالوضع الأمثل هو وضع النفس المجاهدة. فالمجاهدون من الخلق هم صفوتهم وأعلى مراتبهم.إن الجهاد يفصل المؤمن عن المؤمن درجة مع الاشتراك في الايمان وهو قاعدة بناء الذات في الإسلام. هذا ضمن دائرة المؤمنين، ثم بعد ذلك تأتي دائرة السوء التي توجد فيها الأنفس الفاسدة.

ويكون ظلم النفس بأحد أمرين، إما بالرضا بالهوان والقبول بالدونية والخضوع للاستبداد والاستلاب، أو بممارسة التصرفات الاستعلائية والتسلط على الخلق الأمر الذي سماه القرآن الكريم: الإجرام.

أ - الأذلون

يقول تعالى :» إن الذين توفتهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا «[2]

هذه الطائفة من ظالمي أنفسهم تتمثل في أولئك العبيد الأذلاء لا لله بل للعبيد ولإخوانهم من الخلق جنّا كانوا أم إنسا. وأغلب البشر لو تأملنا ينتمون إلى هذه الدائرة الفاسدة من الخلق الذين ظلموا أنفسهم وذلك بقبول الذل والهوان والرضا باستبداد الشياطين على باطنهم، واستبداد المجرمين السفلة من الحكام وسواهم على أبدانهم وحياتهم.

إن هؤلاء الذين رضوا بالدون قد ظلموا أنفسهم ظلما عظيما في نظر القرآن

(١) سورة النساء : ٩٥ _ ٩٩

(٢) سورة النساء : ٩٧

الكريم. ولأول مرة نحن أمام عقيدة جهادية، رسالية واضحة، لا تبرر سلوك العبيد، ولا تمالىء الأغلبية التي هانت عليها أنفسها حيث يعلن القرآن الكريم في آيات محكمة أن حجة هؤلاء لاغية. فما هي حجة الأذلاء في القبول بالذل والهوان؟ يجيب القرآن الكريم على لسانهم:» قالوا كنا مستضعفين في الأرض». فهؤلاء العبيد الأذلاء يصورون أنفسهم إذن تصويرا يروق لهم، وذلك بادعاء أنهم قد غلبوا على أنفسهم وأنهم لم يجدوا إلى العزة سبيلا.وبذلك، وحيث ظنوا أنهم أدلوا بحجتهم فقد اعترفوا بخطئهم.

وأول الأخطاء الرهيبة في فكر هؤلاء وعقيدتهم اللعينة، اعتقادهم أن الله قد جعل للمخلوق سلطانا على المخلوق. والله تعالى جل وعلا، ما جعل هذا وما قرره، بل لقد أعلن في سفر تكوين الإنسان عن عكس هذه المقولة. فلما استعلى ابليس وقال» لأغوينهم أجمعين «؛ أكد الله تعالى أن عباده ليس للشيطان عليهم سلطان، وأنه لا سلطان له إلا على من اتبعه من الغاوين :

» قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين. قال هذا صراط عليّ مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين.وإن جهنم لموعدهم أجمعين.لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم «[1].

فيتأكد حينئذ أنه ليس في سر تكوين الإنسان أبدا ما يؤسس للاستبداد و قبول الاستعباد اللذين قد يفرضهما الخلق عليه.

فما هو مصدر الهوان والذل حينئذ ؟ يجيب القرآن الكريم بوضوح عن هذا السؤال مؤكدا أن مصدر كل هذا هو النفس الانسانية؛ نفس هؤلاء العبيد الأذلاء الذين لم تقع قيادتهم من الخارج نحو مصير محتوم لا فكاك منه؛ بل رضوا بالاستعباد والهوان الذي سلط عليهم لما رضوا في دخيلة أنفسهم بغواية ابليس، ومالوا إلى ما دعاهم إليه من حب الزينة والخضوع لها:» قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين.إلا عبادك منهم المخلصين».

هنا تنفضح بجلاء أسرار الاستعباد وخلفيات الاستبداد. فما حدث لهؤلاء الذين

(١) سورة الحجر : ٣٩ _ ٤٤

ادعوا أنهم مستضعفون في الأرض، هو بالضبط ما حدث لإبليس مع ربه. فقد ابتلى الله سبحانه وتعالى ابليس لما أمره بالسجود لآدم ليتأكد من طاعته وإسلامه لربه، وقد فشل ابليس فشلا ذريعا لما نظر إلى مضمون الأمر بعين نفسه ونسي الحقيقة الأهم وهي أنه أمام أمر الله تعالى الذي يجب أن يطبق ويطاع، فلما عصى ربه غوى وضل. وهؤلاء الأذلاء من الخلق أغواهم ابليس وزين لهم في الأرض وهي نفوسهم. فلما ازيّنت وظهرت لهم في أثواب الوهم، أحبوها وكرهوا فراقها وشقاقها ومحاربتها ومدافعتها، فركعوا لها وما ركعوا في الحقيقة إلا للشيطان فيها. وهذا أول الدمار وأساسه ومبدؤه. فما حدث الدمار إلا من قبل النفس. فلما ركع هؤلاء للزينة في باطن أنفسهم، خضعوا لها في ظاهر الأرض.

فالزينة واحدة والطلاء واحد. يقول تعالى:» إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا. وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا.»[1]

فما هي زينة الأرض؟ الجواب: إنها الناس والأشياء أي الزخرف الفاني. فهؤلاء الناس الذين يلبسون شتى أنواع الثياب ويتنافسون في اتخاذ الألوان والأصباغ وشتى الأسماء وما هم في الحقيقة إلا نفس واحدة. وهذه الأشياء التي تنوعت بحسب تسميات الناس إلى ذهب وماس وحديد وزخرف وصديد، وما هي في الحقيقة إلا خلق واحد؛ لابد أن تصبح ذات سلطة قاهرة على من خضع للزينة في باطنه أي في نفسه.

فكيف يطمع من أغواه ابليس فقبل ما صوره له بشأن نفسه، وما يصورها له إلا بصور الكبر والجمال والقوة والزينة؛ كيف يطمع هذا المخلوق أن لا يخضع لنفس متكبرة في الواقع الموضوعي(الخارجي)، وأن لا يخضع لنفس باطشة(السلطة المستبدة مثلا) وهو مفتون بنفسه لما صورها له ابليس في مظاهر البطش والجبروت؟.

وباختصار، فإن هذا المخلوق الذليل الذي نراه في الظاهر مثيرا للرثاء، وقد يخدعنا مظهره فنشفق عليه، ليس سوى شيطان فاسد نقل إليه ابليس سره

(١) _ سورة الكهف : ٧ _ ٨

وجعله من جنده سواء أعلم ذلك أم لم يعلم. إنه إنسان عاص، غاو فاسد مفسد، وهو ترب ابليس؛ ولذلك حسم الله العدل الحق، القول في هؤلاء وحكم عليهم بدخول جهنم: «فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا».[1]

.وقال تعالى فيهم:»وإن جهنم لموعدهم أجمعين»[2].

إن هؤلاء الذين قالوا كنا مستضعفين في الأرض، أدلوا بحجة كاذبة علّمهم إياها اللعين حتى يلهيهم عن الحقيقة وعن العمل المطلوب، وليس سوى التوبة والاستغفار ورفض مسلك الذل جملة وتفصيلا.

كذلك استهانت امرأة العزيز بالحق وتخلت عن العفاف لما أذهلها جمال يوسف عن نفسها فغدت تطلبه بكل السبل وأسلمت قيادها لهواها فأضلها وما هداها. وما نهجت تلكم المرأة ذاك السبيل إلا عندما استحكم سلطان الهوى فأعمى عقلها ولقنها حجة حسبت أنها تبرر مسلكها وتعذرها عند الناس وما هي في الحقيقة بمعذورة، وسوف ياتي اليوم الذي ستشهد فيه على نفسها بأنها كانت من الغاوين. فما هي الحجة التي جعلت امرأة العزيز لاترى عيبا في مهاجمة يوسف ولا بأسا في مراودته عن نفسه ؟

إن هذه الحجة تتمثل في حالة من الضعف استولت على هذه المرأة أمام فتاها جعلتها تعتقد أنها أمام جمال لا يقاوم. وكانت مستعدة بما استحكم فيها من سلطان الهوى أن تظهر موقفها وأن تدافع عليه لاباعتباره موقفا مهتزا، بل كموقف مشروع وكعمل مبرر لا ينقص من قيمتها وشأنها كامرأة للعزيز. ذلك بالفعل ما دعاها وقد سمعت بتهامس النسوة حول ضلالها،إلى دعوتهن ووضعهن أمام ما وضعت فيه من بلاء مبين: « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين.فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن.فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم. قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن

(١) سورة النساء : ٩٧
(٢) سورة الحجر : ٤٣

نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين».[1]

لقد تجلى يوسف الصديق أمام تينك النسوة المترفات كفتنة لا تقاوم، وأصبحن بعد رؤيته جاهزات لا لتجعلن منه ملاك افحسب أي لتنصيبه كطاغوت للذة، بل أيضا لتتنافسن على الفوز بوده والظفر بوصاله. وبذلك أصبح موقف امرأة العزيز من يوسف موقفا عاما معلنا ومشروعا بعد أن كان يفترض وصفه بالسفه والضلال.

تلك هي فتنة الحياة الدنيا تطغى وتشتد حتى تخضع لها القلوب وتنحني أمامها الرقاب، بل وتبرر الانصياع لها العقول. وما تلك الفتنة في الحقيقة والواقع بمثل ما تصور به من القوة والهيمنة، فيوسف الصديق لم يكن إذذاك إلا فتى غريب الأهل والدار؛ ولكن التخلي عن حدود الشرع في النظر إلى الخلق ومعاملتهم، كان كفيلا بأن يجعل امرأة العزيز ومن ورائها نسوة المدينة تهوين صرعى أمام سحر فتنة الدنيا وزينة مرعاها.

وفي المقابل، لم تكن فتنة امرأة العزيز ثم نسوة المدينة من ورائها هينة على يوسف الصديق؛ فهاتيك النسوة بما أوتينه من المكر والسحر، كن قادرات على إغواء أعتى الرجال؛ إلا أن يوسف الصديق جابههن بالاحتماء بربه، أي بالميل إلى نور الشرع الحنيف، فكان أن حماه الله تعالى بأن حفظ عليه رشده فلم تفقده فتنة النسوة وعيه، ولم تزحزحه دعوة امرأة العزيز عن التمسك بوضعه كخادم أمين لا يخون سيده ولا ينبغي له. إن صيحة يوسف عليه السلام قائلا :»رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه»[2]؛ إعلان صريح في موقف بلاء مبين، أنه لا سبيل للصمود أمام الطاغوت مهما كان نوعه وجنسه، إلا بالمقاومة والجهاد وتقديم النفس هينة فداء للحرية والكرامة، وانتصارا للحق؛ وذلك على وجه التحديد ما لم تفعله امرأة العزيز ولا نسوة المدينة عندما تهافتن على الفتى تبتغين استهلاكه ضاربات عرض الحائط بإحصانهن المزعوم. فتأكد من ذلك أنه لا حصانة إلا لمن تحصن بنور الشرع ولا ملجأ إلا لمن إلى الله لجأ.

أما الخطأ الثاني الذي يرتكبه الظالمون لأنفسهم، فهو كيفية سعيهم لحل

(١) سورة يوسف : ٣٠ _ ٣٢

(٢) سورة يوسف : ٣٣

أزمتهم. فهؤلاء العصاة، عوض أن يتجهوا إلى ربهم لكي يفك أسرهم ويحررهم من أوهام الشيطان التي أصبحت أوراما وسرطانا خبيثا يأكل أنسجة نفوسهم بلا هوادة؛ نسوا الله جملة، وركنوا إلى أنفسهم، وبايعوا الشيطان فعذرهم: «كنا مستضعفين في الأرض»، واستحلت أنفسهم الذل، وسكنت إلى الهوان سكون الخامل إلى سريره، والمأفون إلى أفيونه، وران على أنفسهم ما كانوا يكسبون؛ حتى إننا لنشهدهم وقد طبع الله تعالى على قلوبهم، يتنافسون في إظهار آيات الطاعة للشيطان ليل نهار، ويتدافعون أيهم يقبل أعتاب قاتله ومستعبده والمتسلط عليه. إنها الكارثة الأسوأ في مسيرة البشرية، واللعنة التي ما بعدها لعنة، والفاجعة التي إذا استوعبها الإنسان بنور وقف شعر رأسه رعبا لما حدث وما يحدث من دمار على مستوى ذات الإنسان.

لو اتجه هؤلاء الضالون إلى الله تعالى ودعوه بدعاء آدم وزوجه، حيث قالا بعد المعصية: «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».[1]؛ لتاب الله تعالى عليهم وهداهم واجتباهم كما هدى آدم واجتباه:» وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه فتاب عليه وهدى.

قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى».[2]

فهذه الآيات تدل على الاجتباء الالهي لآدم عليه السلام، ومعنى الاجتباء: الجذب والاصطفاء. كما تؤكد على توبة الله على آدم وهدايته بما أنزل عليه من الآيات الهاديات. فهذا هو الموقف السليم، وهذا هو الحل لمأساة هؤلاء الظالمي أنفسهم، والذين يتمرغون في أوحال العبودية للعبيد ليل نهار، والذين ظهرت سوآتهم لكل ذي بصيرة من الخلق، وهم يحسبون أنهم مستورون. عراهم الشيطان من كل شيء، فلم يترك لهم شيئا مستورا. فلا تجد لهم باطنا أصلا.

فباطنهم هو عين ظاهرهم مما يفعلونه من تعظيم ساداتهم وتقديس آلهتهم من الخلق، وإظهار الخضوع والولاء لهم.

(١) سورة الأعراف : ٢٣

(٢) سورة طه : ١٢١ _ ١٢٤

هؤلاء الشياطين الذين هم أفسد خلق الله وأسوأ طينة مخلوقة على الإطلاق، لم يسعوا في ستر أنفسهم ولم يكترثوا بالانتصار لها بعدما حدث لها من الدمار، بل:»رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها» [1]؛ أي قبلوا أنفسهم على ما هي عليه، وكان عملهم الوحيد، تبرير ما هم عليه مما لا يرضاه كلب أجرب. فانظر إلى حجتهم يكشفها القرآن ويدحضها حيث يقول تعالى:» يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون.

يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوء اتهما. إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون. وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون.

قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون. فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون»[2].

تكشف الآيات السابقة بصدق ووضوح عن الحل القرآني للأزمة العميقة والجوهرية التي تعاني منها أغلبية أفراد هذا النوع الإنساني الهالك، وهي أزمة القبول بالتسلط والرضا بالظلم والهوان، وذلك من خلال تعرية خفايا هذا الاستلاب الخطير. إذ أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم يحاربون باستماتة لا لكي يتوبوا ويستغفروا، فهم لا يعرفون الاستغفار ولا التوبة، وإنما لكي يبرروا الفاحشة والمنكر الذي يرتكبون: «وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون».[3]

فأقصى علم العلماء من هذا الصنف الجاهل بأجمعه، تبرير الذل والهوان وظلم النفس، وذلك إما بالبحث عن «الأسباب» في سيرة الآباء، وبذلك يؤلهون الأسباب وتنطلي عليهم حيلة ابليس، ويؤكدون بذلك أن عقولهم قد أصيبت بالفعل في

(١) سورة يونس : ٧
(٢) سورة الأعراف : ٢٦ _ ٣٠
(٣) سورة الأعراف : ٢٨

الصميم، وأنها أصبحت عقولا كافرة، حيث لا ترى إلا الأسباب في حين تنكر رب الأسباب ومسببها. فإذا ذكر الله تعالى قالوا وما أسوأ ما قالوا: « والله أمرنا بها «، أي بالفحشاء.

فتعللوا بالقدر واعتذروا بالقضاء لتبرير هذه المظلمة التي أدت إلى وأد أنفسهم على مذابح الشياطين والطغاة من السلاطين والحكام وأرباب السلطة بكل أنواعها وتجلياتها.

هكذا أداهم قصورهم إلى الجهل المطلق فتألهوا؛ فانظر إلى علم هؤلاء الأراذل، يعذرون الشيطان ويقبلون عليه، ويعزفون عن الله ويقولون عليه مالايعلمون .

إن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم واعتذروا بالأسباب وادعوا الضعف والقصور، هم أسوأ المستكبرين في نفس الوقت وأردأ آلهة القردة والخنازير. فلقد تألهوا لما اتبعوا زينة الشيطان بدون علم، ولقد تألهوا لما رفضوا التوبة والاستغفار، وتألهوا ثالثة لما تذرعوا بالآباء وكذبوا على الله وعذروا أنفسهم. فهل صدروا في كل هذا إلا عن علمهم وتصوراتهم المريضة ؟

فذلك معنى التأله: أن يتصرف الإنسان في نفسه بمقتضى «علمه» ،ثم يدعي أنه لا سلطان له عليها، وأنه مستضعف. فأي مستضعف هذا الذي يلغي كلام الله ويتبع كلام الشيطان، ويعلي من شأن الزينة الفانية ويترك الباقيات الصالحات، ويعتذر بالآباء وكأنهم أصل الداء وهو البريء رغم أنه أسوأ منهم في الحقيقة والواقع ؟ فإذا التفت إلى الله، رماه بأسوإ التهم وادعى أنه تعالى أمره بالفحشاء، ثم هو في كل هذا وذاك يظهر في أفعاله حرصه على البقاء في مرتبته التي هو فيها بل ويعمل على تدعيم أمانه بمزيد الركون إلى آلهته المريضة. فإذا جاء يوم القيامة قال: «كنت مستضعفا في الأرض».

فوالله ما جزاؤه إلا النار عساها تدمر خلاياه المريضة. حيث ما حمل هذا الهيكل الإنساني إلا شيطانا ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إن مرض هؤلاء وسبب مأساتهم ليس في وجود المستبدين وظهور الشياطين، بل في أنفسهم المنحطة ،التي أخلدت إلى الأرض واستكانت إلى الخمول والانحطاط،

يتبين ذلك من خلال موقفهم من الجهاد الذي تصوره الآيات التالية:» فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون. فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون «[1].

السر في ركون هؤلاء الكلاب، وهم في الحقيقة دون مستوى الكلاب، إلى شياطينهم وساداتهم وكبرائهم هو إشفاقهم على أنفسهم: «وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر».

فهم يرفضون أن يجاهدوا أي أن يرقوا أنفسهم من أنفس خاملة إلى أنفس مقاتلة، ومن أنفس طائعة قابلة ذليلة، إلى أنفس حية عاملة ناصبة في سبيل العزة والكرامة . إنهم البخلاء الذين بخلوا بالمال ولذلك تجدهم أكثر الناس حبا في المال وسعيا إلى جمعه وبخلوا بالنفس، ولذلك فعلامتهم أنهم أحرص الناس على حياة، ثم هم فوق ذلك يتجهون حثيثا نحو الترف والراحة والدعة : «وقالوا لا تنفروا في الحر».

إذن فإن هؤلاء المنافقين المجرمين، يرفضون أي اشتراط موضوعي، ويلبون نداء أنفسهم فقط، حيث لا تدعوهم هذه الأنفس اللعينة إلا إلى الراحة والنعيم. ويجيبهم ربهم العليم بما تخفي صدورهم بقوله :» قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون «.

هؤلاء الظالمون أنفسهم، هم العبيد وأنكاد البشر في كل أمة وملة. ولا يذهبن في البال أنهم لا يوجدون في المسلمين، فأغلب «المسلمين» اليوم هم من هذه الطينة الفاسدة والأغلبية الملعونة في القرآن، وما إسلامهم إلا كذب ونفاق وزور؛ أما في الواقع ،فهم عبّاد أهوائهم وأتباع أنفسهم التي آلت بهم إلى عبادة العبيد من شياطين الإنس والجن، كل من تسلط منهم وتجبر. يقول تعالى لرسوله: «ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما. يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا».[2]

(١) سورة التوبة : ٨١ _ ٨٢

(٢) سورة النساء : ١٠٧ - ١٠٨

إن هذه الطائفة من الخلق هم الأنعام بل هم أضل سبيلا؛ أنعام يمارس عليها شياطين الإنس والجن ما شاؤوا من نزوات، ويعتقدون أن لهم عليها كل حق، حتى حق ذبحها بدون أن يصيح أحد منها أو أن يرفض. يقول تعالى عن هذه الأنعام البشرية: « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون».[1] ويقول تعالى في موقفهم من أنفسهم ، وفي بيعهم الذي باعوه في سوق النفوس، وما الحياة الدنيا إلا سوق تباع فيه الأنفس وتشترى :» ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون «[2].

لقدد شرى هؤلاء الظالمون أنفسهم بثمن بخس. وفي سبيل أن لا يشهدوا على أنفسهم فعلوا كل شيء وتعللوا بكل علة. إلا أن الله تعالى لن يتركهم وما يرغبون.

إن ما فروا منه في الدنيا، سوف يفعلونه رغما عنهم في الآخرة؛ يقول تعالى:» ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا. قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم. وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون. يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا.

قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين»[3]

فالشهادة على النفس حكم لازم. وإذا كان المؤمنون يفعلونه في الدنيا فيحوزون حسن ثواب الآخرة، فإن المجرمين يتغافلون عن هذا الدور الأساسي للإنسان.

إلا أن غفلتهم هذه لن تدوم، لأنهم سيشهدون على أنفسهم يوم القيامة أحبوا أم كرهوا. حينئذ، سيتبين بوضوح أن هؤلاء العبيد لم يظلموا أحدا بقدر ما ظلموا أنفسهم لما دسوها ظانين أنهم بذلك يحمونها ويحفظونها ويحيونها.

---

(١) سورة الأنعام : ١٢

(٢) سورة البقرة : ١٠٢ _ ١٠٣

(٣) سورة الأنعام : ١٢٨ _ ١٣٠

يقول تعالى فيهم :» وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[1].

هكذا قضت الأقدار بأن يلتقي يوسف الصديق بامرأة العزيز وبالنسوة اللائي أغوينه، في موقف شهادة عند ملك عادل لم تملكن عنده إلا أن تشهدن بالحق وأن تبرئن الرجل العفيف من كل سوء أو فساد نية. جاء تفصيل هذه الشهادة في قوله تعالى كاشفا عما دار من حوار بين الملك وبين النسوة: « قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين. وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إنه غفور رحيم «[2].

تلك شهادة حق لابد منها بعد أن سبقتها شهادة زور: « قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم «.[3]

هذا المشهد الأرضي اختزال للمشهد السماوي الأعلى يوم تقف الأنفس بين يدي مليك مقتدر، فلا تملك نفس إلا أن تشهد بالحق شاءت أم أبت، فإن أرادت زيغا أو جادلت بالباطل أنشأ لها الحق تعالى من جلدها ومن يديها ومن رجليها ألسنة حق لا تملك أمامها إلا أن تخشع لشاهد الحق المبين.

إن امرأة العزيز أنموذج للنفس الإنسانية التي طلبت النجاة في غير منجاة، وتدثرت بأردية الباطل تطلب أن تغطي بها سوأتها، إلا أن الحق الذي يطلب الباطل حثيثا ليزهقه ، مالبث أن أدركها فعراها من البهتان؛ حينئذ لم تجد ملجأ من الحق إلا إليه. وفي المقابل، يقف يوسف الصديق كنموذج للعقل المؤمن الراشد، الذي لم تغوه الأهواء، ولم يتخذ طريق الباطل سبيلا رغم الترغيب والترهيب اللذين تعرض لهما، فكان جزاؤه أن أخرجه الله تعالى من الظلمات إلى النور: « وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين»[4].

(١) سورة البقرة : ٥٧
(٢) سورة يوسف : ٥١ _ ٥٣
(٣) سورة يوسف : ٢٥
(٤) سورة يوسف : ٥٤

فصح لدينا يقينا أن الإنسان يظلم نفسه إذا أشفق عليها، وأنه لا منجاة له إلا بنقل هذه النفس من مرآة الشيطان إلى مرآة الله؛ الأمر الذي يعني الانتقال من حب الدنيا إلى حب الآخرة، ومن موقف الإشفاق على النفس إلى موقف مجاهدتها، ومن موقف الاعتذار والقول اللامجدي إلى موقف العمل الصالح وليس سوى الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

ب _ المستكبرون

النوع الثاني من ظالمي أنفسهم هم اولئك المستعلون المستكبرون، المتألهون فوق الأرض ظلما وعدوانا.. والاستعلاء الإنساني كما يتبين من خلال القرآن العظيم، يتجلى على مستويات شتى. فهناك الاستعلاء المعرفي والذي يتمثل في إلغاء حق الله تعالى في تحديد الوجود وتعريفه وإسناد هذه المهمة بدلا من ذلك للإنسان. والمستعلون من هذا النوع هم الكافرون الذين يفترون على الله الكذب.يقول الله تعالى فيهم:» ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته.

إنه لا يفلح الظالمون»[1]. ويقول تعالى في سورة الأعراف :» فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته.اولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين»[2].

وقد أعاد الله تعالى التأكيد في أكثر من آية على أن أشد الناس ظلما هم اولئك الصم العمي البكم الذين استحقوا هذه الصفات لما انقطعوا عن ربهم ونسوا خالقهم نتيجة لاستعلائهم وإجرامهم. إن الاستعلاء المعرفي يصل قمته عندما يعلن أجهل الخلق أنه أجدر بإمامة الناس ويلزم الآخرين باتباعه قهرا وبغيا وعسفا. وقد تمثل هذا الموقف في فرعون لما قال لقومه: «ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد»[3]. فهذه قمة التأله المعرفي المرتبط بالاستعلاء

(١) سورة الأنعام : ٢١
(٢) سورة الأعراف : ٣٧
(٣) سورة غافر : ٢٩

والاستبداد، وما ذلك إلا لكونه جهل وكذب وبهتان. فدلالة كذب المعرفة ،اقترانها بالتسلط والاستبداد والإرهاب.ومعلوم أن فرعون كان يأبى على قومه أن يروا بأعينهم أو بعين غير عينه: «ما أريكم إلا ما أرى «. فماذا رأى ؟ لقد رأى نفسه الها مالكا للناس، مهيمنا على العباد والبلاد. يقول تعالى:» ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين. فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين.فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين»[1].

ذلك دين الطاغوت عبر التاريخ الإنساني، دين ممسوخ لا يصدر إلا عن آلهة ممسوخة، منزوعة الأعين، صماء الآذان، خربة العقول، قد استولى عليها الشيطان استيلاء واحتنكها في ذريته وجعلها من جنده وعبيده، فقامت بمهام الشيطان أحسن قيام:» فاستخف قومه فأطاعوه «. وهل من مهمة شيطانية أخطر من الاستخفاف بالإنسان وإهانته وإهدار فكره وتسفيه نور بصره وبصيرته. إن الله تعالى الحي القيوم ،الملك المهيمن، لم يقل مثل هذا القول الفرعوني الفاسد، ولم يستعل على الانسان وهو عبده، استعلاء فرعون على قومه. فالله تعالى الذي له الدين الخالص، دعا الناس إلى الايمان بحرية، ولم يتجبر في دعوتهم إلى الايمان:» لاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي. فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم»[2]. فهنا احترام للإنسان، وتأكيد لحقه وحريته في اختيار طريقه وتنصيب الهه، لأن الله الواحد الحق لا يخشى أن يتحرك عقل الانسان طلبا للحقيقة والنور؛ فعند الحقيقة وبظهور النور، لن يرى هذا العقل سوى الله.

أما الطواغيت، فباعتبارهم آلهة زيف أو بالأحرى خفافيش ظلام، فإنهم يرفضون أي استعراض في النور، وينكرون أي عمل في العمق. فالرؤية في النور، والعمل في العمق يدمر الكيان الطاغوتي ويقضي عليه. ولقد كشف فرعون عن ايديولوجية الطاغوت كلها لما قال :

(١) سورة الزخرف : ٥١ _ ٥٥

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦

» أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين». فهنا تتجلى خصائص الايديولوجيا الطغيانية الطاغوتية في كل زمان ومكان. هناك أولا الاستعلاء،حيث استعلى فوعون على موسى عليه السلام واصفا إياه بصفات النقص والحقارة. وفي ترتيب كلامه يكمن الكثير من حقائق الطغيان الفاسد. فقد ابتدأ أولا بنفسه فصدّرها:

» أنا خير «، وذلك شأن الطغاة، ملأت عليهم أنفسهم أقطار ذواتهم فلم يعد لهم معها كلام ولا عليها سلطان.

فهم عبيد أنفسهم بشكل مطلق، كما أن أنفسهم إماء الشيطان بشكل مطلق؛ وتلك هي الحقيقة الأعمق لكل كيان إنساني طاغ. ثم زكّى نفسه فجعلها محل الخير ومركز الرفعة والعلو. ثم تكلم عن خصمه فلم يذكر اسمه البتة، بل قال:» هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين «. وهنا احتقار واستعلاء كاشف عن النقص والهوان لا عن العزة. إن الله تعالى سمى فرعون باسمه، وموسى عليه السلام خاطبه باسمه، أما هو، فقد كشف خطابه على أنه في حالة رد فعل، وفي حالة دفاع عن نفسه.

وفي حين كان الله تعالى عن طريق نبيه موسى عليه السلام يريد أن يهديه، كان هو يتجبر ويتكبر على هذا الهدى.

أما الخاصية الأساسية الثانية من خصائص الايديولوجيا الطاغوتية، فهي الاعتماد على القوة والجبروت.

وليست القوة التي يعتد بها الطغاة قوة حقيقية، وإذن لحقّ للناس أن يصدقوهم. وإنما هي قوة وهمية زخرفية، ظاهرية شكلية. لذلك تغاضى فرعون عن أقوى ما في خطاب موسى عليه السلام وهو الحق والصدق والآيات البينات، وبحثت عينه العمياء عما يراه هو قوة: « فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين».

قوة الفراعنة والطغاة، تتمثل في الذهب والأنصار الأشداء.

ولقد حمل بنو اسرائيل بعد ذلك لعنة الفراعنة لما بقوا مصرين على عبادة

القوة ممثلة في الذهب والعجل (رمز القوة المادية الجوفاء: الخوار). والحقيقة أن الطاغوت وهو يكشف عن مفهومه للقوة، يعرف بنقطة ضعفه وبالمواضع التي تشكل مقاتل النظام الطغياني. فإذا استطاع شخص أن يتخلص من هيمنة الذهب الأصفر الفاقع اللون، وأن يراه ترابا، بل أن يرى التراب أفضل منه. وإذا استطاع أن يتفطن إلى ضعف ناصر الطغاة من الجنود المتوحشين الذين لا تشكل جلبتهم إلا خوارا كخوار الثور،أقصى ما يمكن أن يفعله في الحقيقة أن يكون مصدر إزعاج لا غير، أما في الواقع فهو صوت أجوف مصيره إلى العدم؛

حينئذ سوف يرى ببصر من حديد أن الطغاة ليسوا سوى بشر من أردإ أنواع البشر. وأنهم لا يستحقون من الأوصاف إلا ما يصفون به أعداءهم، ومن الجزاء إلا ما يرتكبونه في حق مقاوميهم، وأنه من الممتنع في ملك الله أن يبقي على مثل هذه الكائنات السرطانية الخبيثة. إن فرعون يجسد نموذجا محكما جيدا للايديولوجيا الطاغوتية في كل معانيها وأبعادها، وللشخصية الطاغوتية في كل أفكارها وأعمالها وأقوالها. ولذلك فقد اعتنى القرآن الكريم أيما عناية بهذا النموذج فلم يذكره في سورة واحدة بل ذكره في أغلب سور القرآن، ومن خلاله أبرز الله تعالى جلّ أحكامه فيما يخص مسألة الطغيان والظلم والإجرام.

وإذا كان الوجه الايديولوجي للطغيان يتمثل في ادعاء العلم والحكمة، وفي الاستبداد بالرؤية، بل وفي الاستئثار بحق تعيين المفاهيم وتحديد الحدود:» قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد «؛ فإن في ذلك تأكيد لل»معرفة» بقوة السلطان، وترسيخ «للحقيقة» بأفعال الطغيان. إن هذا التصريح الفرعوني يبلغ بصاحبه أقصى حدود الطغيان والظلم والاستبداد؛ كيف لا وهو يصل إلى مرتبة النفي الكامل لله أولا وللخلق ثانيا، ليعلن نفسه سلطة الوجود ومانح الحقيقة ومصدر النور..

وانطلاقا من الاستبداد بمبدإ « الألوهية «، يرفض فرعون أن يتحرك الوعي بعيدا عنه وخارج حدوده ودائرته، لأن مثل هذه الحركة سوف تكون بالضرورة مضادة للوعي الفرعوني وهديه الشيطاني الخبيث. لذلك لما أسلم السحرة تحت قهر الآيات البينات، رفض فرعون عملهم ورأى فيه اعتداء على سلطته المطلقة على

العقول. يقول تعالى:

»وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون. فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون. فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. وألقي السحرة ساجدين. قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون. قال فرعون ءامنتم له قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون.لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين.قالوا إنا إلى ربنا منقلبون. وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين.

وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون»[1].

وجاء في سورة طه حول نفس الموقف:» فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى.

قال ءامنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى. قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا.إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى.إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى»[2].

يتبين من خلال هذا المشهد الباهر المثير الكاشف عن طوايا النفوس والمظهر للبواطن والخفايا، أن فرعون رمز الطغيان والجبروت، والذي نصب نفسه وليا على الحقيقة وبابا للمعرفة ومدخلا وحيدا، وهاديا لا نظير له إلى النور، سريعا ما يرتد إلى أصل مبناه وإلى قوام فكره وأساس أيديولوجيته عندما يتهدده الحق بالفضيحة والخراب. فعندما أظهر الله تعالى حجة موسى عليه السلام، وألقي السحرة سجدا، تراجع فرعون إلى قلعة الطغيان وقال :»ءامنتم له قبل أن آذن لكم»، فعرف بذلك أنه أجهل الخلق لما جعل الايمان تحت قهر القوة ناسيا أن

(١) سورة الأعراف : ١١٧ _ ١٢٧

(٢) سورة طه : ٧٠ _٧٤

القلوب لا سلطان عليها إلا للحق. إن السحرة أنفسهم لم يكن ايمانهم عن اختيار بل عن اضطرار لما رأوه من الحقيقة الساطعة:» فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى».

إن فرعون يصل إلى كمال البغي والاعتداء والإجـرام عندما يدعي الولاية على القلوب كما ادعى الولاية على الأرزاق والأملاك من قبل. وإذا كان لم يجد من معترض لما قال:» أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون»[1]، فإن القلوب تكلمت وحدها على لسان السحرة وأكدت أن لا سلطان عليها إلا لله تعالى. قال فرعون:» فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى»[2]. وأجاب السحرة:» قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا. فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى»[3].

يلتقي في هذا الموقف الرهيب جبروت الطغيان بسلطان الله الواحد الأحد التقاء صراع لا رحمة فيه.وفعلا، فإن فرعون يظهر آخر أسلحته وهي ادعاء التحكم في الأجساد حيث توعد السحرة بفنون العذاب وألوان العقاب، وقد رد السحرة الذين استولى على قلوبهم سلطان الحق بقولهم: « فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا «.

يتمحض فرعون وقد تعرى من زينته في يوم الزينة، للجبروت والطغيان والإجرام. لقد ادعى قبل ذلك اليوم المشهود أنه إنما يتكلم عن حق ويهدي إلى سبيل الرشاد. أما وقد ظهر كذبه، وانهارت أسباب قوته المعرفية، وليست سوى السحر،أي الايهامات الظاهرية وألوان الخداع البصري، فإنه حينئذ سوف يكشف عن وجهه الدموي المستبد:» وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك.قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون»[4].

(١) سورة الزخرف : ٥١
(٢) سورة طه : ٧١
(٣) سورة طه : ٧٣
(٤) سورة الأعراف : ١٢٧

ذلك هو العمل الفرعوني: التقتيل والاعتداء على الأعراض وانتهاك الحرمات وهي كلها أعمال البرابرة المتوحشين، بل إن بعض القبائل ممن توصف بالتوحش،لا تجيز أعرافها مثل هذا الاعتداء وهذه الهمجية التي قد لا نجدها حتى بين الحيوانات العجماء. بذلك ينكشف بشكل قاطع أن الوجه المدني والحضاري لفرعون ملك مصر، بلاد التمدن وموطن الفنون والعلوم، ليس سوى وجه ظاهري مزخرف مزين يكمن وراءه الحيوان الأعجم، بل ما هو أشد من ذلك وأسوأ: الشيطان الفاسد الفاجر بدون تأويل.

فليس فرعون في الحقيقة والواقع، إلا الشيطان نفسه وقد تمكن من نفس إنسانية فأغراها وأغواها حتى عزلها وأبعدها وقتلها واستولى على محلها. ذلك أن الشيطان لا يعمل بنفسه، ولا يبرز بوجهه، وإنما يتحرك من خلال وجوه أوليائه وأصحابه وقرنائه من مجانين البشر,في قول فرعون:» وإنا فوقهم قاهرون «، تلخيص للإجرام في كلمة: القهر.

وبذلك نفهم الوجه الثاني لمسألة قتل النفس وظلم النفس. فإذا كان الوجه الأول هو قبول القهر، فإن الوجه الثاني لظلم النفس يتمثل في ممارسة القهر. وإذا كانت خطيئة وجريمة المقهورين الراضين بالقهر تتمثل في اعتبار قاهريهم آلهة لا تقاوم، أي في تأليه غيرهم، فإن جريمة القاهرين الجبارين تتمثل في حسبان أنفسهم آلهة بالفعل. وفي كل الأحوال كان نسيان الله تعالى هو الخطأ العظيم في حساب هؤلاء الظالمي أنفسهم.

وإذا كان السحرة وبنو اسرائيل قد نجوا بما صبروا، فإن قوم فرعون الذين استخفهم فأطاعوه، سوف يكون مصيرهم أن يدخلوا معه النار وذلك لأنهم رضوا بقوله لهم :» ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد «. فلما اتبعوا أمره وأجازوا قهره وبطشه، حق أن يكون جزاؤهم نفس جزائه:

» ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملإه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد. يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود. وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود. ذلك من أنباء

القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد»[1].

كان يوسف عليه السلام يعي جيدا أنه بإزاء امرأة العزيز يواجه قوة كيانا سلطويا، وأنه في حالتي القبول بالترغيب أو بالترهيب، سوف يرتكب نفس الخطإ القاتل : الخضوع للتسلط. لذلك كان رده على محاولات الإغراء والترغيب، نفس رده على محاولات التركيع والترهيب متمثلا في الاستعصام بالله تعالى والفرار إليه سبحانه وطلب حمايته لعبده الضعيف.

إن امرأة العزيز التي قالت ليوسف في لهجة كلها إغواء وإغراء: «هيت لك» ، هي التي ستقول بعد ذلك أمام ملإ النسوة مهددة متوعدة: « قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونا من الصاغرين»[2].

ذلك شأن خطاب التسلط والإرهاب عبر الأجيال، يبدأ بالترغيب عساه يخفى، فيستجيب له الغبي البليد، أما المؤمن الرشيد ، فلا يستجيب بل يستعصم وينيب.

فإذا فشلت خطة الترغيب، جاء أوان خطة الترهيب. فمن سلم من السهمين معا، فهو المهتدي، ومن أرداه أحدهما، فهو الهالك الشقي. ولو دققنا الملاحظة، لتبينا أن سهم الاستبداد واحد في الحالتين، وعملة واحدة ذات وجهين؛ إذا سلم الإنسان من الاغترار بوجهها الأول، سلم أيضا من الاغترار بوجهها الثاني.

هذا اعتقاد ثابت أكيد، تكشف عنه الآيات القرآنية سواء في توجيهاتها المباشرة أو من خلال ايراد العبر وقص القصص.

فتأكد لدينا أنه ما خاف خائف من مستبد إلا بقدر طمعه فيه.وأن مستوى الخوف لا يتجاوز بحال من الأحوال مستوى الطمع. إن يوسف الصديق الذي لم يرضخ لإغراء امرأة العزيز رغم جبروتها، سوف يجد القدرة على تحدي الوعيد الذي جابهته به. فلما أعلنته بالويل وهددته بالسجن، وتوعددته بالصغار، صاح صيحته الشهيرة:

(١) سورة هود : ٩٦ _ ١٠٠
(٢) سورة يوسف : ٣٢

«رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه». هنا موقف ايماني واضح يفرق بين فتنة الناس وعذاب الله، فيستهين بالأولى ويتقي الثاني. وكم من مدّع للايمان متظاهر بالإسلام يعبد الله على حرف، حتى إذا جابهته فتنة الناس خضع لهم وركع متعللا بأن الله ما أمره بأن يلقي بيديه إلى التهلكة، ألا إلى التهلكة هوى لو كان يدري. يقول الحق سبحانه وتعالى:» ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله. ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين.

وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين»[1].

لقد آن الأوان لكي يجابه «المسلمون» اليوم أنفسهم بالحقيقة، وهي أنهم وقد رضوا أغلبهم بحكم الطواغيت، قد أصبحوا في الحقيقة منافقين تشملهم أحكام المنافقين،ويحق عليهم ما يحق على المنافقين من وعيد.

هكذا يلتقي القاهر بالمقهور، والظالم بالمظلوم في نار جهنم لا فضل لأحدهم على الآخر. وقد كشف القرآن الكريم عن أطراف هامة من كلامهم في جهنم وتحاورهم فيها. يقول تعالى في سورة سبإ: « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه. ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين.

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون»[2].

هذه الآيات البينات من سورة سبإ تبين بوضوح وضمن خطاب محكم معنى الظلم؛ حيث حق أن لا يستأثر بهذه الصفة المستكبرون بل أيضا الذين استضعفوا ورضوا بالاستكبار، كما تكشف عن حقيقة أفعال الظالمين: «بل مكر

(١) سورة العنكبوت : ١٠ _ ١١
(٢) سورة سبأ : ٣١ _ ٣٣

الليل والنهار...»، وكذلك عن حقيقة أنفس المستضعفين:» قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين». والسؤال الذي نطرحه الآن: لماذا سوى الله بين المستكبرين والمستضعفين في الصفة والجزاء واعتبرهم جميعا ظالمين وجعل مصيرهم إلى النار؟

لاريب أن الإجابة عن هذا السؤال لها فوائدها الجمة في فهم حقيقة هذا النوع الإنساني وسر ائتلافه واختلافه، ومعنى الحرية والعبودية وعديد الحقائق الأخرى.

وللإجابة نمهد فنقول، إنه لولا وجود المستضعفين لما وجد المستكبرون، ولولا ظهور المستكبرين لما وجد المستضعفون.وبعبارة أخرى،نحن لسنا أمام ظاهرتين مختلفتين رغم أنهما تبدوان ظاهريا كذلك،بل أمام ظاهرة واحدة هي ظاهرة الزوجية الفاسدة والقران الحرام والتركيب الذي لا يحل في ملك الله ولا يصح اللهم إلا أن يحل ائتلاف خطاب الله وخطاب الشيطان، أو أن يصح التقاء الوجود والعدم.

ونعود إلى أصل القصة، إلى سفر التكوين[1] لنبحث عن أسرار اللعبة ونكشف عن خفايا المستور.

حيث يتبين من خلال مطالعة أحداث سفر التكوين أن آدم كان محفوظا بالحفظ الالهي، وكان ينعم في جنته لا يمسه فيها غَول ولا نصب ولا عري ولا جوع، وكانت بداية مأساته لما أغواه الشيطان بوعد كاذب فاسد ظنه آدم حقا فمال إليه وترك وعد ربه:» إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى.

وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى»[2]. واتبع وعد الشيطان :» فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى»[3]

.وكانت النتيجة :» فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من

---

(١)نقصد بسفر التكوين قصة خلق آدم عليه السلام وما واكبها من أحداث ومواقف كما رواها القرآن

(٢) _ سورة طه : ١١٨ _ ١١٩

(٣) _ سورة طه : ١٢٠

ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى»[1].

إن آدم بالنسبة للشيطان في هذا الموقف، هو كالمقهور المستضعف بالنسبة لقاهره المستكبر. فمعلوم أن ابليس قد استكبر وأبى أن يأتمر بأمر ربه وأن يسجد لآدم، وكان المعنى الوحيد لاستكباره أنه تخلى عن خط الوجود، وعن خط العقل الالهي الكلي، ليخط هو في حد ذاته عقلا خاصا. وما دام الله تعالى هو الوجود الكل الحق، الذي لا يعزب عنه شيء في الوجود ولا يوجد شيء إلا من قبله، فإن ابليس ليس له حينئذ من فرصة لإثبات ذاته إلا بأن ينشىء العدم. فولادة الرفض الشيطاني،كانت ولادة للعدم المقابل للوجود.

وكان آدم هو المخلوق المبتلى بالاختيار بين الوجود والعدم، بين الله والشيطان، بين الجنة والنار. ولو نظرنا إلى هذا الابتلاء نظرة ظاهرية، لهالنا مدى بساطته وسهولة المطلوب من آدم فيه. فهل يتطلب الأمر كثير وقت وكثير جهد ليختار الانسان الجنة على النار؟

والحقيقة، أنه ابتلاء بسيط بالفعل، سهل ميسور،لا تحتاج الإجابة عن سؤاله الأساسي: هل أنت مع الوجود أم مع العدم ؟ إلا إلى وضوح كبير وصراحة وشجاعة ليقول الإنسان أنا مع الوجود ولست مع العدم بل ضده، فإذا قال ذلك نجا.

فلماذا عسر الأمر وعظم الخطب وجل ؟ ولماذا عصى أغلب أبناء آدم ربهم وما أطاعوه ؟ .

والجواب، إن مبدأ العصيان يأتي من الجهل، ومبدأ الجهل يأتي من النسيان، ومبدأ النسيان يأتي من النفس الأمارة بالسوء.

فلولا قابلية نفس الانسان للتحول والتبدل والتغير في الأحوال والأطوار والصور شأن الطين والصلصال، لما استضعفها ابليس ولما استخف بها ونظر إليها نظرة كبر واستعلاء.»ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس لم يكن من الساجدين.قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال

(١) _ سورة طه : ١٢١

أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»[1].

فما طمع ابليس في آدم إلا لما رآه طينا لازبا وصلصالا فخارا قابلا كل صورة. فعلم أن هذا المخلوق الجديد لا يستحيل على صورة ولا يمتنع عن التشكل. فكانت لعبة ابليس وعمله في آدم، عمل صاحب الفخار في فخاره يشكله كيف يشاء. وكلما كانت كتلة الطين التي بين يديه أكثر ميوعة وليونة، كان أقدر على تشكيلها وتصويرها، وعلى إلباسها الصورة التي يشاء. ولو نظرنا إلى حقيقة هذا الطين، لقلنا إنه يشكل بالضبط معنى النفس الانسانية ومادتها. فالنفس الانسانية ذات معدن قابل كل صورة. وبماهي كذلك، فهي أداة طيعة في يد أي صانع عليم بسرها ومعدنها. ويستحيل أن تمتنع النفس الانسانبة عن التطويع، وأن لا تقبل التبديل والتصوير والتشكيل إلا في حال واحدة وهي أن تتحجر.فإذا تحجرت، فتلك مفازتها ومنجاتها من الشيطان. ولذلك يطوف المسلمون ببيت الحجر، ويقبلون الحجر الأسود رمزا لهذه الذات المتحجرة.

وما تحجرت إلا لما سكنت إلى بيت ربها، أي إلى أمره ونهيه، حينئذ آوت إلى ركن غير منهدم.

ولو تأملنا صنيع ابليس مع البشر، لوجدناه يقوم على قاعدة التطويع والإخضاع وذلك عبر الإغراء أولا؛ فإذا قبل الانسان إغراء ابليس، كان بمثابة الطين الذي خالطه الماء، وعندئذ يشكله الشيطان كيف يشاء ويصنعه كما يريد.

وبما أن الشيطان لا يريد للإنسان أي خير، بل لا يسعى إلا في تهديم معناه وقطع دابره، فإنه لا يترك لمن تولاه وجها يعول عليه وينتسب إليه. نعلم ذلك يقينا من ملاحظة باطن الانسان وهو عين النفس. فباطن الانسان الذي تولاه الشيطان، كل لحظة هو في شأن، فلا يكاد يظهر على صورة، حتى تظهر صورة أخرى.

ولا يكاد ينشأ كلام حتى يأتي كلام آخر يمحوه. فباطن الانسان الذي استحوذ عليه الشيطان، كالتلفاز الذي ما إن تمتلىء شاشته بصورة حتى تمحوها صورة

(١) سورة الأعراف : ١١ _ ١٢

أخرى... ورغم أن تشكل الصور والكلام في باطن الانسان يتم بحسب نظام مضبوط، وهذا ما يدل على وجود «وعي» محرك، الأمر الذي درسه علماء النفس بعمق وهم يبحثون عن أسباب وحقائق تداعي المعاني والصور والكلام. ورغم أن أغلب الجهلة من البشر يتصورون أنهم في حالة فكر وقرار، أي في حالة حرية وهم يتصورون ويتوهمون ويتكلمون، إلا أن الحقيقة الفاضحة الواضحة التي لا يعلمها إلا قلة من البشر، أن هذا الوضع الداخلي للنفس إذا أصبحت مرآة تتشكل فيها الصور وينتقش فيها الكلام بكيفية مستمرة ومتواصلة قهرية، ليس سوى الدليل القاطع على وضع الاستلاب والاغتراب المطلق عن الذات، وعلى رسوخ وضع العبودية للشيطان.

ليس الشيطان بالنسبة لنا إلا تلك القوة التي تحرك النفس في العمق وتصنعها كيف تشاء. وبمعنى آخر، فإننا لا نرى من الشيطان إلا أثره، وأثره يظهر في النفس صورا وكلاما لا مقدرة للانسان على ايقافهما. يقوم الشيطان وقد استولى على النفس، بعملية استنزاف مرعبة للطاقة الانسانية لا تهدأ ولا تتوقف. فلا يكاد الانسان يفيق من أحلام الليل إلا ليغرق في أحلام النهار. فحياة الإنسان الشيطاني سيلان لا يتوقف من الصور والكلام. وكلما غرق الانسان في هذا الجحيم، كلما بعد عن ذاته وشعر بالعجز، وركبته كل أنواع الحزن واعتراه الوهن.

وإذا كان الجاهلون يتصورون أنهم في حالة وعي وحرية وهم يحيون حالة الاستلاب الشيطاني، فما ذلك إلا لضلالهم البعيد الذي يجعلهم بعد ذلك يتصورون أنهم سعداء رغم أنهم في قبضة المضلين الظالمين من طواغيت الإنس. عند هذه النقطة بالذات، نحن أمام الأسس الأعمق لمسألة الاستبداد والاستلاب. فما يحدث على مستوى علاقة المستكبر بالمستضعف، هو بالضبط ما حدث على مستوى علاقة النفس بالشيطان. فإذا ما قبلت النفس الاجتياح الابليسي الذي لا يأتيها إلا من باب أطماعها وأهوائها ومخاوفها، فيستحيل أن تستعصي على الاستبداد الطاغوتي الفرعوني الانساني. وذلك لأن نفس تنظيم الاستبداد والاستكبار الفرعوني، هو التنظيم الإبليسي الشيطاني.

ولا غرابة، فالشيطان واحد في الحالتين وإن تغيرت صورته. وشياطين الانس

والجن بعضهم أولياء بعض..يقول تعالى:» وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون.ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون»[1].

هذه الآيات البينات المحكمات المعنى والبناء، فيها فصل المقال فيما يتصل بولاية الإنس للجن ولاية شيطانية، كما تبرز حقيقة اللعبة الشيطانية القذرة ومنهجها وكيفيتها. فالنبي في الاعتبار، هو العقل المؤيد بالنور الالهي المستنير بأنوار الحقيقة الالهية المقدسة. ولهذا النبي الذي يقوم في كل نفس إنسانية داعيا إلى الله، ساعيا إلى الشهادة عليها بما استحفظ واستخلف، عدو واحد ذو وجهين ويتمثل في شياطين الإنس والجن.

فلئن اختلف الإنس والجن من حيث الطينة والتركيب ومادة التكوين، إلا أنهما يلتقيان من حيث الابتلاء بالاختيار بين الكفر والايمان. وتبعا لوحدة الابتلاء أمكن تولي بعضهم للبعض. فالكافرون الظالمون منهم أولياء للذين لا يؤمنون من البشر، يلتقون معهم في نفس الأعمال والنوايا، ويجتمعون على زعيمهم ابليس الذي علمهم عصيان ربهم والطغيان على الحق.

يتحقق هدف الاستكبار الطغياني عبر نهج محكم الحلقات يقوم على مراحل ثلاث. المرحلة الاولى هي مرحلة الإصغاء، وفيها يخبت الأذلون إلى شياطين الإنس والجن ليستمعوا إلى ما يوحونه إليهم استماع العبد إلى مولاه.

وبما أن مضمون وحي الطغاة من شياطين الإنس والجن، يتركز على الدنيا، يعظم من شأنها، مغريا بنعيمها، مخوفا من بؤس الحرمان منها، فإن الإنسان كلما تقدم خطوة في مسار الاستماع إلى ما يوحيه هؤلاء، كلما غرق في أفق الحياة الدنيا.

فإذا بلغ الدرجة القصوى من درجات الاستماع إلى وحي الشياطين وهي التي سماها القرآن الكريم «الإصغاء»، يكون قد بلغ أيضا الدرجة القصوى في الغفلة عن الآخرة ووعدها ووعيدها.

(١) سورة الأنعام : ١١٢ _ ١١٣

فإذا انقطع الإنسان عن ذكر الآخرة بفعل الإصغاء إلى الوحي الشيطاني، تنغلق عليه أبواب الدنيا وتنهار مقاومته لطواغيتها ويضطر عندئذ إلى الركوع أمامهم طالبا ل «خيرهم»، مستعيذا من» شرهم «.

إن قطع الإنسان عن الآخرة، هو العمل القاعدي والأساسي واللبنة الرئيسية في المشروع الطغياني. ولذلك كانت العقيدة الأخروية عبر تأكيدها على أن جوهر الفلاح الإنساني إنما يحصل بالفوز بالجنة، وأن جوهر الشقاء الإنساني يكون في حالة الاستحقاق للنار،عقيدة خلاص ونجاة وبعث، أي عقيدة نضالية ثورية بالضرورة.

إن الايمان بالآخرة ايمانا لا ريب فيه، هو العاصم الوحيد من الاستجابة لإغراءات الشياطين ومن الخضوع لتخويفهم وإرهابهم. لذلك قال تعالى:» ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة «. فالذين يؤمنون بالآخرة قد أحرزوا النجاة، واستعصموا بايمانهم أمام مغريات الدنيا الفانية.

فإذا انفصل الإنسان عن الآخرة، عظمت الدنيا في عينيه وكبرت في صدره وتألهت في قلبه، وحينئذ يتحقق الهدف الطغياني الثاني والمتمثل في رضا الإنسان المستلب بجوهر الخطاب الشيطاني وتركه للهدي الالهي.

إن الخطاب الشيطاني يستعمر الكيان الإنساني حالما ينقطع هذا عن الايمان بالبعث، حتى إنه ليصح القول أن جوهر العقلانية الايمانية كونها عقلانية بعث، وأن جوهر العقلانية الطاغوتية كونها عقلانية فناء وانحطاط. إن الذين قاوموا الطغيان بجدارة عبر التاريخ هم اولئك الذين كانوا قادرين على أن يضحوا بالدنيا، ولكن في سبيل الآخرة. إن استعلاء الخطاب الطغياني يصل إلى قمته، عندما يجعل من ضحاياه أول المدافعين عن مشروعه، الراضين به، بل والعاملين على تكريسه باعتباره الخطاب المنطوي على «الواقعية» المتجافي عن أوهام «المثالية».

وعند بلوغ هذا الحد من الاستلاب والانحطاط، يصبح الإنسان الراضي بخطاب الطغيان، عبدا للشيطان وواحدا من جملة الأنعام التي تساق سوقا إلى ما يراد بها من تحقيق للذة مالكيها وسعادتهم. حينئذ يصبح هذا الإنسان الذليل آلة بيد

الشيطان يستعمله فيما يشاء وحيث يشاء، وذلك معنى قوله تعالى ملخصا في كلامه البليغ مضمون المرحلة الثالثة من مراحل الاسبداد الطغياني:» وليقترفوا ما هم مقترفون «.

هكذا، وعبر خطاب قرآني محكم، نستطيع أن نفهم كيف ينحط الانسان من مستوى المخلوق المكرّم الذي سجدت الملائكة إكراما له، إلى مستوى الحيوان الذي يملكه العبيد ويستعملونه في مصالحهم وأهوائهم ويمارسون عليه شتى نزواتهم ويستبدون به استبدادا. وذلك على التحقيق ما جعل هذه الآيات الكريمة تتلى في سورة الأنعام دون سواها.

كان يوسف الصديق عليه السلام، يعي جيدا أن كلمة «هيت لك» التي قيلت له بلسان يقطر إغراء وإثارة وفتنة، هي بداية طريق الانحطاط إلى مستوى الأنعام المصلوبة على مذبح لذة سادتها، ولذلك استعصم بالله تعالى، ووقف أمام طغيان المرأة المستبدة المترفة التي ألبت عليه بعد ذلك نزوات طبقة الترف والاستبداد بعرضه على نساء المدينة.

إلا أنه وقد أصبح أمام خيار المقاومة أو الخضوع، يطلق صيحة مدوية، سوف تبقى إلى الأبد محفورة في سجل الموحدين قائلا :» رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه «. وبذلك انهار سحر الطغيان، وبذلك أيضا أصبح يوسف الصديق معلّما من معلمي الإنسان.

الفصل السابع
النبوة والرسالة
الاستخلاف الأصغر والاستخلاف الأكبر

بين قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز وقصة موسى عليه السلام مع فرعون صلات وعلاقات. وليس من باب الصدفة أن يكون مسرح الأحداث واحدا في القصتين معا وهو أرض مصر، إرشادا للعقول إلى أن تنتبه وللقلوب إلى أن تعي عن الله. كما أنه ليس من الصعب التفطن إلى التشابه الكبير بين حياتي كل واحد من هذين النبيين الكريمين، وخاصة ما حباهما الله به من وجوه العناية والتسديد منذ المراحل الأولى من حياتيهما. فإذا كان يوسف قد ألقي في غيابت الجب،فإن موسى عليه السلام قد ألقي في اليم، وإذا كان يوسف سوف يتربى في دار العزيز، وسوف يبتلى بفتنة صاحبة الدار بالذات، فإن موسى قد تربى في قصر فرعون وابتلي بصاحب القصر.

وإذا كان شريط الأحداث المتسارعة كاد أن يخفت وأن ينقطع في قصة يوسف بدخوله السجن:

» فلبث في السجن بضع سنين «؛ فإن شريط الأحداث المتسارعة أيضا كاد أن يخفت في قصة موسى عليه السلام بهروبه من مصر إلى مدين وبقائه فيها زهاء الثماني أوالعشر حجج.

وإذا كان التمكين في الأرض هو نهاية ابتلاء يوسف عليه السلام، فإن وراثة الأرض التي بارك الله حولها وإهلاك فرعون وملئه كان نتيجة لصبر بني اسرائيل وخروجهم مع نبيهم.

وعموما، فقد شكلت مرحلة نبوة يوسف عليه السلام بطريقة أو بأخرى تمهيدا لمرحلة رسالة موسى عليه السلام. وهذا واضح في قول الرجل المؤمن من آل فرعون لقومه وهو يحاججهم: «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب»[1].

واضح إذن أن مرحلة يوسف ونبوته بالتحديد، لم تمر دون أثر بل مهدت لرسالة التوحيد الموسوية حيث تأكد لدينا أن يوسف عليه السلام كان يدعو بوضوح إلى الله الواحد الأحد من يقابله ويسمع عنه. وإذا كان القرآن الكريم لم يشر

(١) سورة غافر : ٣٤

إلى دور رسالي كبير ليوسف عليه السلام، فإنه قد احتفى من جانب آخر بالدور النبوي الكبير لهذا النبي المجتبى.

ونذهب وبالله التوفيق، إلى أن النبيين الرسولين يوسف عليه السلام وموسى عليه السلام، يتكاملان تكامل النبوة والرسالة، وأن قصتيهما لذلك، لا تفهمان منفصلتين بقدر ما تفهمان مجتمعتين ومتداخلتين. فقد جسد يوسف أنموذج الإنسان في محاربة فساد النفس وبذلك أعطى المعنى الجوهري والحقيقي للنبوة.وجسد موسى أنموذج الإنسان في محاربة فساد العقل وبذلك أعطى المعنى الحقيقي والجوهري للرسالة.

وعبر العملين معا ،العمل النبوي والعمل الرسالي تكتمل مهمة الإنسان ويحقق الاستخلاف على الوجه المرضي.

لو نظرنا في العمق إلى قصة يوسف النبي عليه السلام، لوجدنا أنفسنا أمام سيرة ذاتية تناولت حياة إنسان منذ صغره إلى لحظة القمة في حياته عبر أسلوب ومنهج قرآني طاغ في بيانه وسحره وايحاء اته. ولو أردنا أن نلخص هذه السيرة العطرة لهذا النبي الكريم، لقلنا إنها سيرة الإنسان في مجاهدة نفسه وبناء شخصيته ونحت كيانه. إنهاحرب ضد طغيان النفس الأمارة بالسوء، وإحياء في نفس الوقت للنفس المطمئنة المستخلفة. لذلك كان مسار ترقي شخصية يوسف عليه السلام، هو مسار نضج العقل ورشده.» وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين[1].

وقال تعالى:»ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين»[2].

فالتأييد الالهي عبر ترشيد العقل بالحكم والعلم، والمنة الالهية بصرف السوء والفحشاء عنه، كلها أعمال الهية هدفها الوصول بالعقل اليوسفي إلى مرحلة الإحسان. ولذلك لما رأت نسوة المدينة يوسف رأين فيه صورة مثلى خارقة الحضور والتأثير:» فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا

(١) سورة يوسف : ٢١ _ ٢٢

(٢) ن م : ٢٤

إن هذا إلا ملك كريم»[1].

إن خضوع النفس «العزيزة»، ممثلة في امرأة العزيز، ثم النفوس مجتمعة ممثلة في نخبة نسوة المدينة، أمام الحضرة اليوسفية واضح الدلالة على قوة تأثير هذا العقل المبني على عين الله وبصره. ولا يذهبن إلى الأذهان أن قوة يوسف في سحر جسده وجمال وجهه منفصلين عن جمال روحه وعقله.

فجمال الرجل إنما هو جمال عقله.وقد جعل الله تعالى جسد يوسف مؤولا صريحا بلا لبس لوضع عقله. ومادام عقله قد بلغ الكمال أو يكاد، بما أوتي من حكمة وعلم، وبما وهب من قدرات ومن علوم الهية عجيبة، فإن وجهه جاء ناطقا بالكمال معبرا عنه. فما كشف الوجه إلا كمال العقل.

ولو لم يكن عقل يوسف عليه السلام،على هيئة من الكمال باهرة، لما ظهر على وجهه النور الباهر الذي جعل النفوس تحن إليه حنين الظلمة إلى النور.

ونور العقل هو نور الحدود، والحدود علم الله الذي اختص به تعالى. فما للإنسان المؤمن دخل أصلا في تحديد الحدود بل هو لها قابل عن ربه ولأحكامها مستفيد: «ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما «. فالحكم والعلم من عند الله تعالى لا من عند سواه. إن جسد يوسف النبي مرآة صادقة أظهرت كمالات عقله، فإذا به النور الساطع والشمس التي إذا ظهرت غاب في سلطان نورها باقي الكواكب والأقمار. لذلك رأينا أن موقف نسوة المدينة لم يختلف إطلاقا عن موقف امرأة العزيز لما رأين يوسف، ولم يظهر بينهن موقف مخالف. إن اتفاق نسوة المدينة في قولهن:» حاش لله ما هذا بشرا..»؛ دليل على أنهن لمسن سرا انسانيا عميقا وعظيما، حيث رأين وفي مشهد خارق، عقلا متحررا من الحدود الجسدية الحسية، ظاهرا بكل قواه وملكاته. فما رأين حينئذ سوى النور الباهر. فكان هذا الانبهار شبيها بانبهار الرسول الخاتم لما جاءه جبريل عليه السلام على صورته الملكية. وفي حين يتصور الكثيرون أن الجسد الجميل هو أكبر حاضر في التكوين اليوسفي، فإننا نلاحظ أن العكس تماما هو الصحيح. فالروح(العقل)، كان الحاضر الأوحد الطاغي الذي نفى ثقل الجسد وستره

(١) ن م : ٣١

وكثافته.

وعبر قوة التأويل أو طبيعة العلم الذي أيد به العقل اليوسفي، كان لابد لوجه يوسف أن يعكس صورة عقله، لأن الوجه تأويل العقل أي حقيقته في علم الله وتدبيره الحكيم. يقول تعالى:» فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[1] ويقول تعالى:» ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا «[2]. واضح أن الوجه في هاتين الآيتين وفي غيرهما من الآيات، لا يدل على الوجه الحسي، بل يدل على وجه الذات أي حقيقتها. ولذلك جعل الله من أسلم وجهه لله وهو محسن أحسن الناس دينا. وإسلام الوجه لله ليس سوى الايمان به والطاعة لأحكامه، وكل ذلك بخضوع وإنابة ورضا ويقين، وهي صفات العقل المستخلف الذي نزله الله تعالى في هذه المملكة الانسانية المباركة.

ليس من الشائع ولا من السائد أن يعبر الوجه صراحة عن وضع النفس وعن ايمان العقل إلا رمزا.

وقد جعل الله تعالى هذا التعبير الوجهي عن وضع العقل خاصية من خواص هذه الأمة الاسلامية الأمية المحمدية التي كرمها الله تعالى وشرفها، حيث يقول تعالى:»محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما» [3].

فأمة محمد صلى الله عليه وسلم، هي الأمة التي وسم وجهها أثر السجود، فدل ظاهر الوجه على باطن النفس التي حجّر الله تعالى رؤيتها على الأعين البشرية. فعلم من سمة الوجه (أثر السجود)، وضع العقل وهو الايمان والإسلام لله تعالى.

(١) سورة الروم : ٣٠
(٢) سورة النساء : ١٢٥
(٣) سورة الفتح : ٢٩

وهذه الخاصية التي امتازت بها الأمة الأمية المحمدية، هي من ضمن الإرث النبوي الشامل الذي ورثته هذه الأمة المباركة. فوراثتها لسمة الوجه (أثر السجود)، تأكيد على وراثتها لعلم التأويل اليوسفي، ولامتيازات واختصاصات هذا النبي المكرم.

إن ظهور وجه يوسف عليه السلام بخصائص عقله وحقائق نفسه على هذه الكيفية الباهرة، إعجاز الهي ميز به الله تعالى هذا النبي الكريم إظهارا منه تعالى لأحكامه وتوضيحا لعظيم تدبيره وشدة إحكامه.

ههنا، وضمن مملكة التأويل تتماهى المرآتان،مرآة الظاهر و مرآة الباطن.فلا ترى في الظاهر إلا الباطن ولاترى في الباطن إلا الظاهر.ولو دققت لقلت إن ثنائية الظاهر والباطن تتهدم ليظهر ما بطن ويبطن ما ظهر؛ وينتفي الكلام لتتكلم الصورة الواحدة الحقية، ويختفي التدبير عند الوصف لينطق الرائي بتواضع لا مناص منه بسر الحقيقة..

إن نسوة المدينة لم تكنّ في موقع الوصف وهن تقلن :» حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم «؛ بل كنّ في وضع اعتراف وشهادة. وخير الكلام وأصدقه ما كان شهادة لا وصفا. ألا ترى أنه تعالى نزه نفسه عما يصفون، ودعا الخلق إلى الشهادة لوجهه الكريم عوض التلهي بالأسماء والأوصاف، فقبل الله تعالى شهادة الملائكة وأولي العلم وضمها إلى شهادته لنفسه، حيث يقول الله تعالى:» شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله إلا هو العزيز الحكيم»[1].

أما الوصف، فنزه الله تعالى نفسه عنه: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»[2].

بهذا نعلم أن أقوى التأويل ما يجعل الوصف شهادة والتعبير اعترافا. وباختصار، إن أقوى التأويل وأصدقه وأعمقه هو ما يحطم سلطة الخطاب، ويهدم قاعدة الكلام إجلالا للموضوع. ولذلك كان الايمان أحسن مواقف الانسان من الوجود

(١) سورة آل عمران : ١٨

(٢) سورة الصافات : ١٨٠ _ ١٨٢

على الإطلاق، وما ذلك إلا لكونه شهادة تمزق حجاب الوصف (الظاهر)، لتلتحم بالحقيقة (الباطن). وبالنسبة للمؤمن إذا كان مؤمنا حقا، فإن الكلام اعتراف وذكر، والإسلام كلمة شهادة.

فلا انفصال للكلمة عن الشهادة. فعين الكلام عين الشهادة. ومعين كل ذلك عقيدة التوحيد التي هي قوام هذا الدين، وعمق معنى قولنا لا اله إلا الله.

فالوجود في عرف المؤمن واعتقاده لا يتوثن، بل هو وجود واحد لخالق واحد، ذاك ايمانه وذاك اعتقاده. وعليه، فإنه باعتقاده هذ يتخلص من كل ايهامات الوثنية والشركية ومظاهر الكفر والنفاق. وأشد ما تبرز هذه المظاهر وأكثر ما تترسخ عبر سلطة الكلام. فالكلام والصور أساس الأوهام.

والمؤمن هو الذي يعلم أن ليس للوجود لغة سوى الوجود في ذاته، أي أنه الذي ينفي اللغة وينفي الصور من خلال نفي سلطة الكلام أي رفض الوثنية والشرك.

يلغي التأويل العميق التوثين الشركي للغة القائم على ثنائية:نص\ قارىء، خطاب\مخاطب؛ تماما كما يلغي التوحيد ثنائية وتعدد الآلهة ليعلن قيومية وهيمنة الاله الواحد. ولذلك ينصّب التأويل النص كسلطان قاهر لا نص معه، ليجعل من القارىء شاهدا له مظهرا لسحره وسره وعظمته.

إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام، لم تختلفن في المقال ولا أجرين حوارا وأدرن مناقشات بينهن، حينئذ سيدل ذلك على تناقض النص وعلى ظهوره بالنقص والكمال، بالخطإ والصواب، بل قلن كلاما واحدا واعترفن اعترافا واحدا. ولذلك يرتبط التأويل بالشهادة كما ترتبط الشهادة بالعقيدة.

وضمن نص الاعتقاد، يصل التأويل الإنساني إلى منتهاه، حيث يحظى النص وبفعل الايمان العميق، بكل سلطته وهيمنته، ويفنى القارىء في المقروء، وينضم المتدبر للقرآن إلى نص القرآن نفسه، فيجد أنه لا يقرأ القرآن إلا بقدر ما يقرأ نفسه في القرآن. حينئذ تكون القراءة توحيدية، وينتفي الاستكبار المعرفي، ويغيب ظلم النفس، وينتفي التعدي على حدود الله؛ وذلك كله معنى القراءة باسم الله الرحمن الرحيم.

وقف النبي يوسف عليه السلام، صامدا أمام أكبر إغراء يمكن أن تغري به النفس الأمارة بالسوء العقل. فلقد برزت النفس الأمارة بالسوء بكل جبروتها وسلطاتها سواء عبر الإغراء أو الوعيد:» قالت فذلك الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين»[1].

كانت حركة امرأة العزيز تفلتا للنفس من نظام القوانين الرحمنية التي تحكم الكون، وكان الأمر بمثابة ثورة الالكترون على موقعه من النواة مطالبا بأن تنعكس الآية فتدور هي حوله عوض أن يستمر هو بالدوران حولها. وكان يوسف عليه السلام، يعلم بما علّمه ربه أن النفس مهما طغت، هي تحت سلطان العقل وليس العكس. وكان نور هذا التعليم الالهي هو الذي مكنه من الصمود أمام جبروت وطغيان امرأة العزيز ثم أمام هجوم نسوة المدينة اللائي تدافعن نحوه كل ترغب في مزاوجة مصدر النور ومنبع الجمال والسحر واليقين.

أما النبي الكريم الذي عقل ذاته من خلال تعليم ربه، فإنه بهذا العقل المستنير لم يلتفت إلى أي معنى يمكن أن يثيره إقبال النسوة عليه. كان هناك معنيان على الأقل لابد أنهما راودا هذا الرجل الحكيم وهما السلطان من ناحية واللذة من ناحية ثانية. فمن الناحية الأولى، كان إقبال امرأة العزيز ذات الشأن على يوسف قمينا بأن يثير فيه، وهو فتاها، أشد مشاعر الرغبة في التمكن والهيمنة والسلطة، كيف لا وهي تعده بموقع السيادة عليها وتعطيه مفاتيح الدار وتمكنه من كرسي العزيز...

ثم إن إقبال نسوة المدينة عليه وسعيهن في طلبه بمثل تلك اللهفة، كان أيضا سيثير غرور أي شاب مغرور، بل سوف يعده بسلطان لا مثيل له على المدينة؛ فالنساء مفاتيح المدينة وسرها المخزون. وبعبارة أخرى، كان موقع الصدارة والمكانة وكرسي الهيمنة والسيطرة على القلوب ينتظره ليتوجه ملكا بدون منازع. غير أن الشاب المؤيد بنور الله، لم يلتفت إلى كل اغراءات التسلط والهيمنة، بل ولم يخضع إلى وعود اللذة التي انفتحت أبوابها عليه بدون حساب، وهل أكبر وأشد من لذة إتيان النساء ! وهل فتنة أكبر من فتنتهن !

(١) سورة يوسف : ٣٢

وفي مقابل كل ذلك، وقف يوسف يدعو ربه:» قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين»[1].

في هذا الدعاء، وفي كلماته المحكمة نستشف الأسرار الكامنة وراء استعصام يوسف عليه السلام، وعمق الفهم النبوي لمسألة التسلط والطغيان وكيفية مقاومته، وقبل ذلك التعرف عليه مهما تخفى تحت أردية الفتنة والإغراء والإثارة.

ففي قوله :»رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه»، وعي عميق بأن المسألة تتصل بمبدإ التوحيد وبقضية العبودية لله. وكذلك استهل دعاءه بقوله :

»رب»، اعترافا بعبوديته لله لا لسواه. فقد كان يعي جيدا أن القهر النسوي الذي تعرض له، يكمن وراء ظاهره الفتان مشروع استقطاب وسلب واستعباد فظيع. فلو أن يوسف جارى امرأة العزيز وصويحباتها على ما دعونه إليه، لآل به الأمر إلى أن يصبح عبدا حقيقيا لهن. لأن في خضوعه لهن وضعفه أمام سلطانهن تأكيد لتبعيته لهن، وحينئذ ينزل عن موقع الصدارة والاستخلاف في نفسه وعليها، ويتنحى عن موقع العقل ليدّارك إلى حضيض النفس الأمارة بالسوء.

فكل نفس بدون عقل حاكم عليها، أمارة بالسوء.

وكل نفس أمارة بالسوء كيان طاغ لا يستحي من مخالطة أي من شياطين الإنس والجن.

وفي قوله عليه السلام:» السجن أحب إلي مما يدعونني إليه»، دليل على أنه تجاوز أسر الشهوات الفاسدة، تلك الشهوات الحرام التي تقلب الإنسان من مخلوق مكرم مستخلف إلى حيوان أقل شأنا من الأنعام والسوائم.

إن أداة المسخ الأساسية التي يستعملها ابليس لتعرية الإنسان من فضائله الأساسية ومن عزته وكرامته هي الشهوة.

فإذا أقبل الإنسان على الشهوات بدون ضابط من الشرع الحكيم، ظهرت سوآته ولا بد علم يوسف عليه السلام، أن وراء نداء الشهوات ووراء الإغراء باللذات ووراء الوعيد بالسجن والتوعد بالصَّغار، يكمن العدم ممثلا في الشيطان الذي

(١) سورة يوسف : ٣٣

أحكم شراكه، ونفخ في أنفس ظاهرة الزينة بادية الجمال ظاهرة الانكسار، وهي الأنفس الأنثوية النسوية الطالبة للوصال، ولكنها في الحقيقة ليست سوى شياطين تسعى إلى التأله والجبروت، والاستبداد بالعقل والهيمنة عليه، أي إلى تغييير خلق الله وتبديل فطرته التي فطر الناس عليها.

إذا استعلت النفس فإن الشيطان حاضر بالضرورة، وهذا ما يعلمه النبي يوسف عليه السلام علم يقين. ولذلك فلم يلتفت عليه السلام إلى ظاهر النساء وأشكالهن، بل كان يرى الشيطان الكامن فيهن والذي يشعل أنفسهن رغبات محمومة لا تعرف الحدود ولا تلتزم بعفة ولا شرف.

لقد كان يوسف عليه السلام قادرا على رؤية الأنفس منفصلة عن أجسادها أو بالأحرى على رؤيتها من خلال أجسادها مثلما يرى الرجل صورته في المرآة لا يخفى منها شيء، وتلك هي على التحديد قوة التأويل. هل كانت امرأة العزيز و نسوة المدينة تعلمن أنهن إذ ترين وجه يوسف عليه السلام لم تكنّ ترين في الحقيقة سوى عقله الحكيم المستنير؟

قد يصعب الجواب بالايجاب، إلا أنه لا يصعب أبدا القول بأن يوسف كان قادرا بما أوتي من علم التاويل، أن يخترق الوجه الظاهر الذي لم يكن بالنسبة إليه سوى غشاء رقيق لا يستر شيئا.

إن قوة علم التأويل تتمثل في مقدرة المؤول على تدمير الظاهر ورؤية الأعماق مباشرة بدون دوران ولا خجل ولا وجل.

لما اطلع يوسف عليه السلام على أنفس النسوة الجميلات المغريات الظاهر،رأى الشوهة والعهر والفساد، وباختصار رأى ظلمات بعضها فوق بعض فأحجم وابتعد، فما عصمه إلا العلم الذي فضله الله تعالى به.

وهذا هو التفسير المقبول، والعلم لله طبعا،لاعتصام هذا الشاب في مقتبل العمر تدعوه أجمل نساء المدينة وزوجات أرقى الطبقات وتلححن في طلبه وتستعملن لذلك شتى الحيل فلا يزداد إلا استعصاما وإباء.

في معركة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز ونسوة المدينة، يبرز العقل

وهو يمارس جهاده للنفس بدون هوادة. وإذا كانت النفس قد تزينت بشتى أنواع الزينة واستعانت بالجنود، حيث غلقت امرأة العزيز الأبواب وقالت هيت لك ثم ادعت أن الفتى ظالم معتد ، ثم زادت في الطلب وأشركت معها نسوة المدينة، ثم أبرزت هدفها المتمثل في إخضاعه بأي ثمن، ثم تكالبت عليه نسوة المدينة. أمام هذا السيل الجارف، كان العقل يقف وحده لا شريك له إلا ربه الذي اصطفاه واجتباه وأراده أن يكون في الأرض خليفة مطاعا مهيمنا لا تابعا ذليلا خاضعا لطواغيت الجن والإنس وشياطينهم.

وإذا عنّ لباحث أن يبحث عن قوى أخرى خارجية داعمة للعقل في اعتصامه، فلن يجد إلا مساندة الحقيقة والمنطق له بما هما نسق الوجود ونظام الحياة. ليس يوسف عليه السلام سوى ذلك الفتى الذي اشتراه العزيز وأكرمه فدانه بكرمه هذا.وليس يوسف سوى ذلك الغريب الذي ألقاه إخوته في الجب وحالت الفيافي والقفار بينه وبين والده الذي يحب.

وباختصار، نحن أمام شاب صغير السن، غريب شريد، مملوك في دار سيد رفيع المقام. وضمن هذا الإطار بالذات، وفي هذه الظروف بالذات، يشاء الله تعالى للعقل الخليفة النبي أن ينبعث. وبذلك تكون مواقفه عبر شتى الابتلاءات، آيات بينات على قوة الانسان، ومعجزات تدل بوضوح لامزيد عليه أن الله تعالى زود عبده الإنسان بكل إمكانات النجاح والسمو والرفعة، وأن الإنسان إذا جاهد النفس فإنه يبني العقل و يقوم بمهمة الاستخلاف فيجد نفسه المطمئنة وينال رضا ربه في نفس الوقت.

فدرب بناء الذات المتمثل في تأسيس العقل وإقامة بنيانه، هو درب رضاء الله ومغفرته وجنته ، وذلك لأن الاستخلاف وهو مهمة الانسان فوق الأرض، وعمله الصالح الذي ينال به كل خير، إنما يقوم بأعبائه العقل الراشد، حيث لا مطمع لمن ضل عقله في ممارسة مهمة الاستخلاف، لاولاحتى في الانتباه إليها.

لذلك انقسمت مهمة الانسان إلى قسمين، وتضمن الطريق مرحلتين: مرحلة الاسراء ومرحلة المعراج.

ضمن مرحلة الاسراء، يمارس الإنسان استخلافا أصغر قوامه إقامة أركان العقل

وتأكيد حضوره في المملكة الانسانية، والسعي به حثيثا وعبر نسق تربوي ومنهج الهي تعليمي واضح نحو قلب المملكة.

ويتأكد حضور العقل ويظهر ضمن جدل مجاهدة النفس. وليس في الإسلام حديث عن عقل نظري ينشأ من ممارسة المعرفة معزولة عن التجربة. العقل هوية تتأكد عبر ممارسة تجربتي الموت والحياة :» الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور»[1]. وأحسن العمل إقامة بنيان العقل، هذا الجوهر الانساني المستخلف، روح الله الكامن في الانسان، الشاهد لله منذ الأزل أنه اله واحد لا شريك له. ولذ لك يكون ختام مرحلة الاسراء ولادة العقل، وظهوره على بقية قوى المملكة، وتحكمه في النفس خاصة حيث أنها لا تتكلم معزولة عن العقل ،إلا بحديث الهوى.

كان على يوسف عليه السلام، أن يخوض تجارب عديدة أهونها وأقلها خطورة، ظلمات السجن. وليس أبلغ في التعبير عن عمق المعاناة وشدة البلوى من قوله عليه السلام:» رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين».

يعلم يوسف عليه السلام يقينا أن ظلمات السجن أهون من ظلمات النفس. فظلمات السجن تكتنف الجدران(الجسد)، وظلمات النفس ترين على القلب وتتملك الباطن. وماذا على الإنسان إن لم ير جسده من شدة الظلمة!

ولكن الأمر يختلف إن لم ير نفسه، حيث سيبدأ حينئذ البحث المحموم عنها. فالانسان بفطرته، مدفوع إلى نفسه ساع إلى رؤيتها. وإذا كان يوسف لن يرى جسده في ظلمات السجن، فإنه سوف يرى نفسه مستنيرة بأنوار العقل، وحينئذ يجد راحته ومستقره الأمين.

وإذ يهيمن العقل على النفس فتصبح الذات كلها نفسا مطمئنة، والنفس المطمئنة هي الذات التي اندمج فيها العقل مع النفس اندماجا رضائيا بعد سلسلة الابتلاءات والتجارب والمجاهدات، يصل الاستخلاف الأصغر إلى درجة مرضية ومرحلة مشرفة، وتختتم مرحلة التطهر الخاص بزوال الأدناس والأرجاس،

(١) سورة الملك : ٢

وليست سوى ما طرأ على النفس من تولي الشيطان إياها بالغواية والإفساد. حينئذ يصبح القلب مسجدا تخرج منه كتائب الجهاد في مسيرة الاستخلاف الأكبر. يقول الله تعالى:» لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين»[1]. فهذا المسجد المؤسس على التقوى هو رمز هذا البنيان القلبي الذي جعله الله تعالى موطنا له في هذه المملكة الإنسانية ومحلا لتدبيره ودعا الإنسان إلى تطهيره وتنويره بالتوبة الخالصة من الكفر والشرك والنفاق، وبالترقي في مسارات الإسلام والايمان والإحسان. يقول تعالى:» الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح.المصباح في زجاجة.الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيىء ولو لم تمسسه نار.نور على نور.يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم. في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار. ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب»[2].

تختتم المرحلة الأولى من الإسراء إذن بإقامة بيت الذات وليس سوى النفس، فالنفس بيت الإنسان، أي بيت العقل ومحل إقامته ومجلى تأثيره. وبتطهر النفس عبر ذكر الله تعالى، تستنير وتزول عنها الأغشية والظلمات الشيطانية، وحينئذ تتهيأ بهذا التمكن الأول لدخول مرحلة ثانية هي كمال مرحلة الإسراء أو الاستخلاف الأكبر، وهو العمل على المستوى الانساني العام هداية للضال وايواء لليتيم وإطعاما للمسكين.

ما إن أتم يوسف عليه السلام حجه إلى ذاته في أيام مباركات، واستغنى بنور ربه عن أنوار الخلق، حتى دفع الله تعالى بمنّ منه وتأييد، تجربة هذا النبي الصادق إلى آفاق رحبة، وأخرجه من ظلمات السجن ليجعله على خزائن الأرض، وفي ذلك حكمة الهية وتدبير رحماني لا يكون إلا من الله البر الرحمن الرحيم.» وقال

(١) سورة التوبة : ١٠٨
(٢) سورة النور : ٣٥ _ ٣٨

الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم. وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين. ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون»[1].

التمكين ليوسف في الأرض هو رحمة الله التي شملته في الدنيا لا كجزاء على صبره في المرحلة الأولى فحسب، وإنما إتماما لإسرائه وتكميلا لاستخلافه حتى يدخل يوم القيامة في سلك الخلفاء الكرام الذين أتموا الحج والعمرة لله.فالحج، الاستخلاف على الذات ولذلك كان فرضا مرة واحدة وما عداه نفل.

أما العمرة فتمثل الاستخلاف على الأرض، ولذلك جاز للإنسان أن يأتيها متى شاء وبحسب مقدرته، فإذا جعلها في رمضان وهو صائم كانت أتم. فالإقبال على الخلق شرط نجاحه صوم النفس عما في أيديهم. ومن لم يجد هذا في نفسه فأولى به أن يشتغل بنفسه قبل أن يفكر في الاشتغال بهموم الناس.

هكذا وعبر مسار الترقي في مراتب التمكين، يصل العقل اليوسفي النبوي الأكرم المستخلف،إلى قمة التمكين في الأرض وذلك ببلوغه مرتبة الإشراف على خزائن الأرض. وكيف لا يكون له هذا الإشراف وهذه المسؤولية وقد دعته خزائن الأرض وأموالها ممثلة في امرأة العزيز ونسوة المدينة، إلى أن يأخذ منها بدون حساب، فرفض واستعصم بالله وامتنع عن الحرام.

حينئذ كان له أن يتولى في الظاهر ما تولاه في الباطن وهو التمكن من أرض الذات. فما ظهر في منصبه الأرضي المشهود إلا بما هو عليه في منصبه القلبي المغيوب. ولذلك طلب يوسف عليه السلام أن يتولى خزائن الأرض بل وزكى نفسه:» إني حفيظ عليم». فما زكاها بما لا يعلم بل بما علم لما استؤمن عليها فقام بواجب الحفظ لها واستعمل العلم تحقيقا لهذه الغاية، ولم يمل مع الهوى.

وما كان له أن يزكي نفسه لو لم يكن عليما بخلالها شاهدا من نفسه على نفسه. فبعقله الذي كمله عبر تجربته الأولى المباركة شهد لنفسه. وهكذا تنقلب الشهادة في المرحلة الثانية من الإسراء من شهادة على النفس إلى شهادة لها

(١) سورة يوسف : ٥٤ _ ٥٧

بفضل الله تعالى وعونه وتأييده.

فهذه مرتبة من أرقى المراتب الإنسانية أن يصل الإنسان إلى درجة الشهادة لنفسه. ولا نقصد بطبيعة الحال اولئك المغضوب عليهم والضالين الذين يتصورون أنهم خير الخلق وهم أفسد الكائنات، وأنهم على علم بحقائق الحياة وهم أجهل الناس؛ وإنما نقصد اولئك الأحرار الأبرار الذين ما شهدوا لأنفسهم إلا لما جعلوها تحت حكم عقولهم المؤمنة القائمة بشرع الله تعالى، وتحكموا في كل جهاتها فسكنت تحت أنوار العقل وقبلت أنواره قبول القمر ليلة البدر لأنوار الشمس.

عود على بدء

وإذ يكتمل إسراء الذات اليوسفية، تعطي أرضه كل حقائقها، وتظهر نفسه بكل كمالاتها، ويصل نور بصيرته إلى أقصاه، وحينئذ يكتمل لديه علم التأويل بظهور حقيقة الرؤيا، وسجود إخوته ووالديه له.

» فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم»[1].

تلك لحظة التمام عند الآية المائة من هذه السورة المباركة المقدسة. يرى يوسف بأم عينه رؤياه وقد جعلها ربه حقا، واقعا لا شك فيه ولا مراء. وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى مضطرين إلى أن نتساءل عن معنى التأويل. فما معنى التأويل ؟

وتجيب سورة يوسف: إن التأ ويل الحقيقي للوجود هو أخذه كما هو.وإن أكبر الحقائق وأصدقها هو ما تراه العين وما تسعه الأذن، وإن التأويل ليس المغامرة باستكناه المعنى، إنه حينئذ كهانة فاسدة وتنجيم لا يرغبه الإسلام ولا يحرض عليه، وإنما التأويل انتظار المعنى والصبر عليه، والايمان بأنه موجود وأنه سيأتي اليوم الذي نراه فيه رأي العين.

إنه كالايمان بل عين الايمان، حيث لا يني المؤمن ينتظر الوعد، وعد ربه صابرا مرابطا حتى يأتي اليوم الذي يرى فيه الوعد حقا وصدقا وعدلا وواقعا لاشك فيه. التأويل عهد مع الحقيقة، ويقين في الحق، وثقة مطلقة فيه. وهو يقين من أن الايمان سيخرج من الذات التي ولد فيها ليصلها بالوجود.

إنه واسطة الانتقال من الذات إلى الموضوع، من الرؤية إلى الحقيقة، ومن

(١) سورة يوسف : ٩٩ _ ١٠٠

الرؤيا إلى الواقع. إنه باختصار فنّ الايمان، فلا تأويل لمن لا ايمان له.

وقد يعنّ لنا أن نتساءل من الذي مارس التأويل وأول الرؤيا، هل هو يوسف أم الله تعالى ؟. أما يوسف فقد قال بتواضع وايمان: «هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا «. فنسب التأويل إلى الله، فلا يحقّ الحق إلا الله تعالى. وأما الله تعالى، رحمان السماوات والأرض، فقد قال:» نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين».

تلك تجربة ايمانية صادقة يلتقي فيها كسب المخلوق (الرؤيا)، بتأييد الخالق (التأويل). وعبر الرؤيا والتأويل يكتمل الخطاب ويصل المعنى إلى كماله. وحينئذ يتهيأ المخلوق لرحلة ثانية هي المعراج إلى السماء :

»رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين»[1].

والمعراج دعاء لأن أبواب السماء لاتفتح إلا بالدعاء، ولأن الدعاء مخ العبادة ومظهر العبودية، ولأنه إعلان توحيد وإظهار حاجة. ولأنه كذلك وقوف في الموقف العبدي المحض، وذل محض. ولأنه تعبير عن أعمق النوايا وعن أعمق المطالب. ولأنه تصنيف للذات واختيار للنفس. ولأن الدعاء لحظة صدق مع الحق، فإن الله تعالى يستجيب دعاء كل داع سواء أدعا طالبا الدنيا أم دعا طالبا الآخرة. ولقد دعا يوسف عليه السلام ربه قائلا:» توفني مسلما وألحقني بالصالحين».

ونحن نؤمّن على دعائه عليه السلام طالبين من المولى العلي القدير إجابته إلى مادعا وإلحاقه بالأمة الإسلامية التي كرم الله أهلها وفضلهم على العالمين تفضيلا.

لقد أشرنا سابقا إلى أن بين قصة يوسف عليه السلام وقصة موسى عليه السلام ترابطا وتواصلا. ونزيد الآن المسألة ايضاحا فنقول إن سيرة يوسف عليه السلام تجسد سيرة النبي وسيرة موسى عليه السلام تجسد سيرة الرسول. وبالنبوة والرسالة معا يكتمل مشروع الاستخلاف كمهمة ذاتية كونية حملها الإنسان من

(١) سورة يوسف : ١٠١

قِبل ربه سبحانه وتعالى.

تمثل النبوة مرحلة بناء الذات وتدور علومها حول مجاهدة النفس وتأكيد سلطة العقل،ولذلك تأتي التجارب النبوية عامة مركزة على حياة النبي نفسه والابتلاءات الشخصية التي ابتلي بها وكيف استطاع أن يتجاوز البلوى بصبر وثبات، وأن يخلص إلى مرحلة التمكين والدعاء بفضل الله الذي هداه واجتباه. أما الرسالة، فتمثل مرحلة بناء الأمة وتأسيس الجماعة المؤمنة؛ وعلومها تتعلق عادة بجهاد الكافرين والمنافقين والمشركين تحقيقا للمكانة في الأرض وتجسيدا للخلافة.

وإذا كانت قصة يوسف عليه السلام قد برزت فيها خصائص مرحلة النبوة بجلاء ووضوح، حيث يمكن أن نجد فيها إجابة واضحة لمعنى أن يكون الانسان نبيا، فإن قصة موسى عليه السلام برزت فيها معاني الرسالة وعلومها، وكيفية قيام التجربة الرسالية تحقيقا للاستخلاف على الأرض وهدما للطواغيت والجبابرة. ورغم أن النبوة تتميز بالتركيز على النفس كمركز بناء ومجال للتجربة؛ في حين أن الرسالة تركز على المجتمع كمجال للتجربة وكمظهر لأسرارها وأحكامها،إلا أن هذا الاختلاف في مجال التجربة لايعني إطلاقا اختلاف التجربة في ذاتها.

فنحن سواء أكنا ضمن تجربة النبوة أم تجربة الرسالة، أمام تجربة واحدة هي تجربة الايمان والجهاد والشهادة.

إن النبي يدفع بايمانه الشخصي إلى قمته وهو يجاهد نفسه التي تهدد بأن تصبح أمارة بالسوء لكي تشكل بذلك كيانا طاغوتيا جبارا مواليا لشياطين الجن والانس. وعبر هذه المجاهدة يترقى في مسار الطهر والنقاء ويتدرج في مراقي الكمال بتكميل عقله بشتى الكمالات والمتمثلة أساسا في أنوار الحدود الالهية. فالعقل أساسا هو آلة مفهومية معرفية لا تشحن في المنظور القرآني إلا ضمن التجربة ومن خلالها.ولا عبرة للمعلومات التي تأتي من خارج التجربة.إن التجربة نفسها هي منهج تذوق المعرفة واستجلابها واستفادتها.

إن العلم والمعرفة يتحولان ضمن منهج التدين إلى تجربة ايمان، وذلك معنى الدين. ولذلك فإن الدين أو بالأحرى التدين، ليس أمرا متاحا لكل الناس بل لاولئك

الذين يرغبون في التجربة، كما أنه ليس مما تعلمه المدارس والأكاديميات بل مما تعلمه الحياة. وضمن دائرة الحياة، وعند تخوم وحدود الممات، تضطرب تجربة المؤمن معطية كل أبعادها وكاشفة عن كل أعماقها.

إن تجربة النبوة هي تجربة تأسيس وبناء للعقل.

ونحن نؤكد تجاوزا لكل خلط مفهومي و لكل اضطراب على مستوى المصطلح لا جدوى من ورائهما، أن العقل هو القلب، وهو الروح الالهي المستخلف، وهو ذات الإنسان المخاطب في القرآن الكريم بخطاب المسؤولية والتكليف.

ونحن لا نقيم أي فصل بين العقل والروح خلافا لعديد الكتابات التي لجت في معالجة هذه المسائل، فتاه أصحابها في خضم التعريفات والحدود، وعوض أن يخلصوا إلى مفهوم واضح توحيدي للإنسان، وصلوا إلى مفاهيم مختلفة متناقضة تصف الإنسان بألف وصف وتؤكد أن فيه ألف معنى وألف بعد. نحن نؤكد باختصار وايجاز ووضوح، أن الإنسان ضمن الخطاب القرآني هو عقل ونفس:

عقل هو المستخلف المخاطب المسؤول، ونفس هي مجال التجربة.

وأن العقل هو الجزء الموجب في الذات والفاعل فيها، وأن النفس هي الجزء السالب المنفعل. وعلاقة العقل بالنفس هي علاقة الفعل والانفعال والتأثير والتأثر، وأنهما أي العقل والنفس يؤسسان على مستوى الباطن، الزوجية الانسانية التي تجلت ظاهرا في خلق الذكر والأنثى. هذا وقد أعطتنا العلوم وكشوفاتها من الحقائق ما أصبحنا نعلم معه أنه لا يوجد مخلوق إلا وفيه هذه الزوجية، وأنه لا حراك إلا ضمن تفاعل قطبيها.

فالذرة تكشفت على تركيب يجمع بين السالب والموجب، والكون بأصغر كائناته وأكبر مجراته، تحدث بحديث الثنائية، فجاء مصدقا لقوله تعالى:» سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون. وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون»[1].

(١) سورة يس : ٣٦ _ ٣٧

هكذا هو كون الله الرحمن الرحيم، نطق بالزوجية في أدق تفصيلاته، وجعل منها بصمة الخالق في نسيج المخلوق. فما تفرد مخلوق وما استقل عن زوجه. فظهر للعيان حينئذ، أن وراء الزوجين الاثنين واحد أحد هيأ هذا للآخر.

ومن يقدر أن يرفض وأن يلغي حقيقة كون الله سبحانه هو الذي خلق الإناث للذكور على هيئة يسكنون فيها إليهن ويجدون فيهن أنسا وراحة ؟ فإن وجد الرافضون المنكرون بعد هذا البرهان العظيم، فهم أنعام الخلق من المستكبرين الضالين، ولله الأمر في خلقه شاء وقضى أن يقابل الجاهلون العالمين لتتم النفرة كما تمت الزوجية ولتبقى الثنائية أبدا وفي كل شيء، علامة على حضوره سبحانه في الكل وعند الكل.

إن النبوة والرسالة تشكلان خطا واحدا هو خط الاستخلاف الإنساني الذي قوامه الجهاد والشهادة لله ضد الطاغوت وكل الآلهة المزيفة الكاذبة. فالنبوة، مقاومة ومجاهدة طاغوت النفس الأمارة بالسوء، المستعلية بأوهام وأحكام الشيطان الرجيم. إنها مرحلة مجاهدة شياطين الجن الذين يجعلون من النفس الخربة مسكنا ومعبدا لهم.

أما الرسالة فهي مرحلة مجاهدة طواغيت الإنس الذين يجعلون من الأرض مسكنا ومعبدا لهم، ويمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها. يقول تعالى :»ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها.اولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين. لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم»[1].

وضمن تجربة النبوة تبنى الذات، لأن إلغاء سلطة شياطين الجن يعني إلغاء الجنون (الجن: الجنن:الجنون:الخفاء..الشيطان:البعد عن الحق...)، وعكس الجنون هو العقل، فكلما هيمن الإنسان على نفسه وجلى ظلماتها، كلما زاد في العقل.

ولذلك كانت شهوات النفس تتجه إلى تمزيق الحدود وإظهار التهتك والفجور:» فألهمها فجورها «، وكان عمل العقل فيها يعني التقوى، وهي الخشية والامتناع

(١) سورة البقرة : ١١٤

والوقوف عند حدود الله «وتقواها».

فالله تعالى سوى هذه النفس الإنسانية وجعل الشيطان صاحب فجورها والعقل صاحب تقواها. حيث أن النفس في حد ذاتها محل لابد أن يقوم بشيء إما بالعقل او بالشيطان. وعبر الجهاد والحرب الضروس، وعبر الشهادة فقط، يتحدد مسار الهيمنة على النفس. فيستحيل أن تستقيم نفس بدون جهاد وشهادة، ذلك مطمع اولئك البؤساء ،التعساء الذين جاؤوا إلى هذه الأرض وخرجوا منها، ولم يفقهوا إطلاقا سر النفس ومن ورائه سر الإنسان ككل.

لذلك يحتوي الإرث النبوي على المنهج الالهي القرآني في استرداد النفس وتزكيتها وتنويرها بأنوار الحدود الالهية والشرائع السماوية الشريفة والمكرمة.

أما ضمن تجربة الرسالة، فيقع إلغاء سلطة شياطين الإنس من طواغيت الأرض، سواء أكانوا ملوكا فراعنة مستبدين، أم جنودا لهم وملأ فجارا فاسقين، مجارين لأطماع الرؤساء وأهوائهم، أم علماء سوء كذابين يأكلون بآيات الله ثمنا قليلا، أم قرونا أطغتهم الأموال والأولاد كما أطغى قارون ماله. كل اولئك البشر الذين طغوا لما رأوا أنهم قد استغنوا، يدخلون ضمن الطاغوت الإنسي الذي جاء الإرث الرسالي لمجاهدته ومقاومته.

ولذلك تحوي علوم الرسالة كيفية السعي من الاستضعاف إلى الاستخلاف عبر منهج الهي محكم حكيم.

ولو لخصنا لقلنا إن النبوة والرسالة معا هما بابان أساسيان لابد أن يطرقهما الانسان الخليفة. وإن الله تعالى إذا كان قد اصطفى من عباده الأنبياء والرسل، فلا لكي يمنع الآخرين من هاتين المهمتين،على العكس، إنه ما جعل الأنبياء وبعث الرسل إلا لكي يتخذ منهم شهداء على خلقه بعد أن دعاهم إلى الاقتداء بهدي الرسل والأنبياء.

يقول تعالى بعد أن ذكر جمعا غفيرا من الأنبياء والرسل:» اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين. اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكر

للعالمين»[1].

ويقول تعالى داعيا إلى التأسي برسوله النبي الأمي صلى الله عليه وسلم:» لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيرا «[2].

لذلك نؤكد أننا لسنا من اولئك الذين يغرقون في تعديد مناقب الرسل والأنبياء لكي يخلصوا إلى جعلهم نماذج تتجاوز الواقع وتتجاوز قدرات الإنسان على المتابعة والتشبه بهم،على العكس، إن القرآن الكريم ومن خلال القصص العديدة التي ذكرها بايجاز أو بتفصيل، جاء ليقرب النبي الرسول إلى الناس، بل ليجعله لهم مثلا شاهدا. ولذلك لم ينتخب القرآن الكريم في قصصه من المشاهد ما يدل على الإعجاز، ومن مواقف الأنبياء ما لا يمكن أن يقلده إنسان.

صحيح أنه تحدّث عن المعجزات، ولكن ضمن سياق عام أشمل وأعم يجعل من معجزة النبي حدثا حزئيا.أما الحدث الأكبر دائما فهو حدث الجهاد والشهادة تمكينا لكلمة الله تعالى داخل النفس أولا وفوق الأرض ثانيا.

إن التسلط تدمير للنفس وتدمير للمجتمع. وإن الطاغوت الشيطاني الإنساني، يلتقي حول عقيدة الهيمنة والتسلط والاستبداد. أما التوحيد فقد جاء برسالة الحرية وبمنهج تحرير اللإنسان.

وكما أعلن الله تعالى أنه لا إكراه في الدين، فقد أعلن في نفس الآية أن الاختيار الأساسي لإثبات الحرية يتمثل في الاختيار بين تولي الطاغوت أو الايمان بالله.

يقول تعالى:» لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم. الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»[3].

(١) سورة الأنعام : ٨٩ _ ٩٠
(٢) سورة الأحزاب : ٢١
(٣) سورة البقرة : ٢٥٦ _ ٢٥٧

ماذا نفهم من هذا ؟

واضح من خلال هذه الآيات البينات، أن قضية التوحيد هي اعتراف وانتماء وشهادة، وأن هذه الشهادة لا تصنع في الخيال ولا تقوم عبر الكلام الذي لامصداق له، بل تصنع في الواقع وفي الأرض وفي واقع النفس وبين الناس. لقد حرر الله الإنسان وجعله سيد نفسه في حالتي الايمان والكفر، وفي نفس الوقت أعلن تعليمه الواضح وهو التالي: من يدعي الايمان بالله فعليه أن يثبت ذلك، وواسطة الإثبات واحدة وحيدة ،هي الكفر بالطاغوت.

إن الكفر بالطاغوت يعني مباشرة أن الإنسان على طريق الايمان وعلى طريق الله. وأما اولئك الذين يركعون لحكم الطاغوت في سرهم وعلانيتهم، ويذهبون في نفس الوقت إلى مساجد الله يتمسحون بها ويدعون أنهم يصلون لله الواحد الأحد، فهم ليسوا سوى صور أخرى من مشركي قريش ومن مشركي مناطق الحضارات الأولى القديمة الذين كانوا يحتفون بكل اله جديد خوفا وطمعا، ويدعون أنهم ما عبدوه إلا ليقربهم إلى الله زلفى.

بذلك يصبح الإسلام لله والجهاد في سبيله حركة واحدة. فلكي تسلم لله،لابد أن تجاهد في سبيله. فلا إسلام من غير جهاد.

وصحيح أن الجهاد درجات، إلا أن أقل درجاته دون بلوغها بذل النفس والمال في سبيل الله تعالى. وليس هناك من محرار أشد حساسية من محرار التوحيد، وليس من ميزان أدق وصفا وكشفا من ميزان التوحيد. فلو وضع مثقال ذرة من شرك في كفة هذا الميزان، لأكل أطنان أعمال التوحيد وجعلها هباء منثورا.

وهكذا، فلابد للمسلم أن يخوض التجربتين معا، التجربة اليوسفية والتجربة الموسوية، شهادة في التجربة الأولى على نفسه، وشهادة في التجربة الثانية على الناس.فإذا حقق الشهادتين دخل الإسلام؛ وذلك معنى أن يرث المسلم إرث النبوة، وأن يستفيد حكمتها ويستنير بنورها. جعلنا الله من المؤمنين المستنيرين ورثة الأنبياء وآل ابراهيم. اللهم آمين.

تم بحمد الله تعالى.

الفهرس

فاتحة : سورة يوسف.....ص 5

الفصل الأول : الرؤيا ، شرعية العلم، شرعية اللغة والنص.....ص13

الفصل الثاني : قوة التأويل ص17

الفصل الثالث: فتوحات التأويل .....ص 35

الفصل الرابع : الايمان والتأويل .....ص 43

الفصل الخامس : انطفاء التأويل .....ص 49

الفصل السادس : وشاهد ومشهود .....ص 81

الفصل السابع : النبوة والرسالة : الاستخلاف الأصغر والاستخلاف الأكبر....ص121

عود على بدء ص136